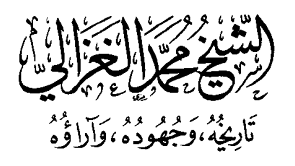

الشيخ محمد الغزالي
تاريخه، وجهوده، وآراؤه

الطّبعَة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

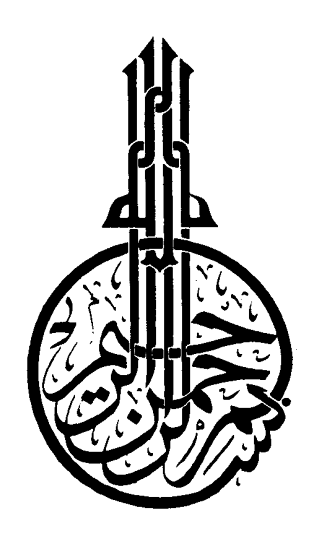
توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

الشيخ محمد الغزالي

تاريخه، وجهوده، وآراؤه

بقلم
الدكتور عبد الحليم عويس

دار القلم
دمشق



الإهـــدَاء

إلى روحه الطاهرة

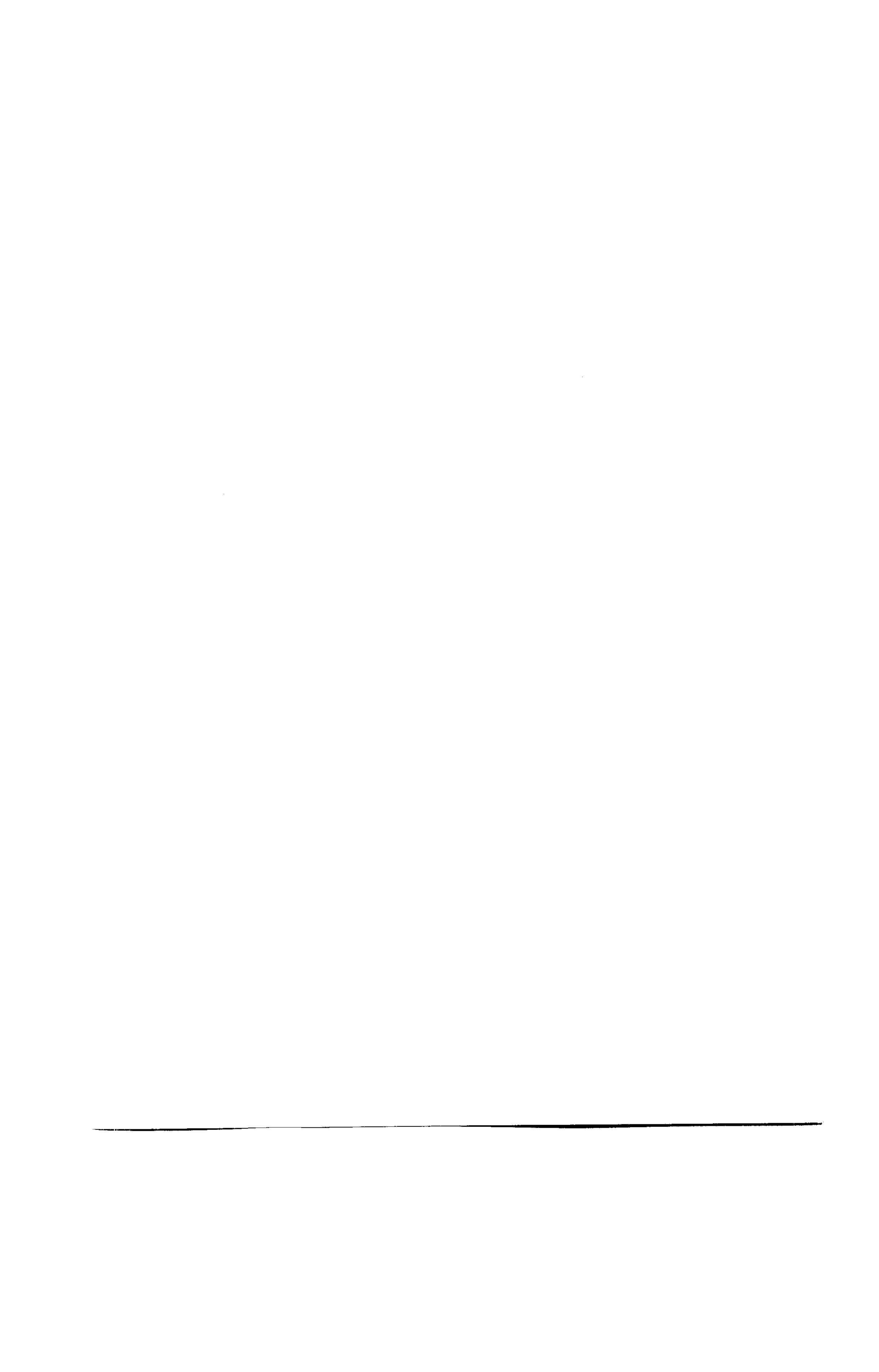
ـ عاش لله، ومع الله، وذاق طعمَ حبِّ الله، والحبِّ في الله.

ـ وما شَغَل نفسه بالصَّغائر، فصَفَتْ نفسُه، وتألَّقتْ روحُه، وفاض حبّاً ودَعْوةً وإبداعاً.

ـ كـان زاهداً في الانتقام، مؤثِـراً العفْو، عميق الصلة بالله، يرجـو عَفْوه وفَضْله، فآتاه الله الكثير، وعوضَّه عن كلِّ مناصب الدنيا خيراً.

ـ فإليـه، في البَقيعِ، وفي الملأ الأعلى، أهدي هذه الصفحات، وعليـه السلام في دار السلام.

الدكتور عبد الحليم عويس



الشيخ محمد الغزالي

خلاصة حياة

● في قرية (نكلا العنب) التابعة لمركز (إيتاي البارود) بمحافظة (البحيرة) بمصر، ولد الشيخ محمد الغزالي السقا في ٢٢ سبتمبر ١٩١٧م.

● وقرية (نكلا العنب) هذه ذات تاريخ معروف، فمنها خرج الشاعر الكبير المجاهد (محمود سامي البارودي)، كما أنّ منطقة (إيتاي البارود) تخرّج فيها عدد كبير من الرجال المخلصين مثل: الشيخ محمد عبده، والشيخ سليم البشري، والشيخ إبراهيم حمروش، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ حسن البنا، والدكتور محمد البهي، والشيخ محمد المدني، والشيخ عبد العزيز عيسى، والشيخ عبد الله المشد، وغيرهم. وقد سماه والده باسم مركّب هو (محمد الغزالي) تيمُّناً باسم الرسول ﷺ، وتيمُّناً باسم أبي حامد الغزالي.

وقد نشأ الشيخ محمد الغزالي بين سبعة إخوة، كان هو أكبرهم، ولهذا كان والده يعلّق عليه أكبرَ آماله في رعاية الأسرة، فكان الوالد إذا مرض يقول لزوجته وأولاده: لا تحزنوا تركتُ لكم ـ بعدَ الله ـ محمد الغزالي.

وكان الشيخ الغزالي عند حسن ظن والده به، فقام بواجبه نحو الأسرة خير قيام.

وكانت والدة الشيخ محمد الغزالي سيدةً فاضلة بارّة محسنة، تحب تقديمَ الخيرِ والعونِ للناس، وكانت تحثّه على تقديم الإحسان لأهل القرية وأرحامِه والمحتاجين.

● وقد تدرَّج الشيخ الغزالي في مراحل التعليم. . وكان (كتّاب القرية) هو المرحلة الأولى في تعليمه، وفي (كتّاب القرية) حفظ القرآن الكريم، وسنُّه عشر سنوات أو أكثر قليلاً.

وتعلّم مبادئ القراءة والكتابة، ثم تدرَّج، فالتحق بمعهد الإسكندرية الديني الابتدائي، ثم حصل على شهادة الكفاءة (٣ سنوات بعد الابتدائي)، ثم حصل على الثانوية (وهي سنتان بعد الكفاءة)، ثم التحق بكليّةِ أصول الدين في جامعة الأزهر سنة (١٩٣٧م)، وتخرج فيها سنة (١٩٤١م)، وتخصَّصَ في الدعوة، وحصل على درجة التخصُّصِ في التدريس، وهي تعادل درجة (الماجستير) ـ سنة (١٩٤٣م) من كلية اللغة العربية.

وفي هذه الأثناء تعرف على جماعة الإخوان المسلمين (عندما كان في العشرين من عمره)، وتتلمذ على الشيخ حسن البنّا رحمه الله، وتأثر به كثيراً.

وقد تزوج وهو طالب في كلية أصول الدين، من ابنة رجلٍ صالحٍ من قريته، وأنجب سبعة أبناء؛ ولديْن وخمس فتيات. . . ، وكان جَدّاً لعدد كبير من الأحفاد قبل موته ـ رحمه الله ـ.

وفي هذه الأثناء كان الشيخُ الغزالي قد وضع أقدامه على طريق الثقافة الإسلامية الرشيدة، فكان نَهِماً في القراءة، متعدِّدَ المواهب، مطلاً على كل الآفاق الثقافية، يحرِصُ على التعمق في الثقافة الإسلامية والأدب العربي.

وقد عُيّن إماماً وخطيباً بمسجد (العتبة الخضراء) بالقاهرة سنة ١٩٤٣م، ثم تدرّج في الوظائف الدعوية والإدارية، حتى صار وكيلاً لوزارة الأوقاف، فضلاً عن أنه درَّس خلال حياته العملية في جامعات (أم القرى) بمكة المكرمة، و(الأزهر) بمصر، و(الأمير عبد القادر) في الجزائر، وغيرها.

وحضر مئات الندوات والمؤتمرات على امتداد العالم كله، وناقش عشرات الرسائل العلمية، وأشرف على كثير منها في السعودية والجزائر.

وللشيخ الغزالي في حياته مواقف تمثل معالم وضيئة ومحطات أساسية. نختار منها المواقف الآتية:

١ ـ تميّزَ الشيخ الغزالي بمواقف جريئة... ولعله الرجل الوحيد في مصر الذي خرجت من أجله التظاهرات العامة (في عهد الثورة) مرتين: مرة أيام عبد الناصر، حين كان الميثاق الوطني وضع، واعترض الشيخ على الجانب العلمانيِّ واليساريِّ فيه... فانبرى له الرسام الكاريكاتوري الشيوعي (صلاح جاهين)، ورسم نصف صفحة في (الأهرام) ساخراً من الشيخ الغزالي وعمامته، وهنا خرجت الجماهير المسلمة غاضبةً، وحطّمت واجهةَ جريدة (الأهرام) واضطرت الجريدة لكتابة اعتذار، كما قدّم الرسام اعتذاره بتدخل من الدولة، خوفاً على حياته من غضب المسلمين.

٢ ـ والمرة الثانية في عهد السادات، حين أراد السادات تغيير قوانين الأحوال الشخصية، والافتئات على حقوق الرجل الشرعية، وتقييد تعدد الزوجات ـ فخرجت الجماهير بتأثير خطب الشيخ الغزالي، وسارت تندِّدُ في شوارع القاهرة بالاعتداء على قانون الأسرة الإسلامي، الذي يُعدّ آخر ما بقي ـ في كثير من الدول الإسلامية ـ من أركان تطبيق الشريعة، فكان أن أوقفت الدولةُ المشروع.

٣ ـ وقد وقف الشيخ الغزالي ضد الجماعات المتطرفة، فكانت له مواقف مشهورة في ذلك، لدرجة أنه تعرَّض لكثير من النقد الحادّ من قِبل بعض هذه الجماعات، فرماه بعضُهم بممالأة الحكام، وبالحرص على رضاهم.

ومع ذلك فإنّ الشيخ الغزالي كان يرى أنّ الإفراط والتفريط سواءٌ في تزييف أسلوب الإسلام، وكان ينصحُ الدولةَ والجماعة الإسلامية بالتزام الرحمة والحب والشورى، والتعاون ضد الأعداء الخارجيين.

٤ ـ ومع أنّ الشيخ الغزالي سلفيُّ العقيدة، يؤمِنُ بالله وبصفاته دونَ تأويلٍ أو تشبيهٍ أو تجسيدٍ، ويؤمِنُ بما كان عليه السلَف الصالح: أصحاب رسول الله ﷺ

وتابعوه ـ إلا أنه ـ مع ذلك ـ قاوم بعض المحسوبين على السلفيّة، الذين يتطرفون في النظرات الجزئية، وفي الوقوف عند بعض ما لا يجوز الوقوف عنده؛ لأنه لم يؤثر عن رسول الله ﷺ أو عن صحابته ـ رضوان الله عليهم ـ مثل هذا الوقوف عند هذه الجزئيات، التي قد يعجز العقل البشري عن إدراك حقيقتها لصلتها بالله والغيب.

كما قاوم الشيخ الغزالي بعضَ المحسوبين على السلفية، ممن يكفِّرون الناس لأدنى شبهة، وممن يتمسكون ببعض الفرعيات الفقهية، ويحاكمون الناس إليها، فينفِّرونهم من الإسلام. وقد نصحَ هؤلاء السلفيين بتغيير فقههم الجزئي، وبتقديم الإسلام تقديماً شمولياً، وبإيثار البراءة على الاتهام، والإيمان على الكفر، والأُخُوّة على الصراع والحقد، وبالجمع ـ في التربية ـ بين القلب والعقل، والعقيدة والأخلاق والشريعة، في سياق واحد!!.

٥ ـ وقد ابتُلي الشيخ الغزالي بالسجن قبل الثورة المصرية التي قامت سنة (١٩٥٢م) وبعدها، فصبر على الإيذاء، وقاوم الدكتاتورية والاستبداد والإلحاد والعلمانية، وذلك من خلال كتبه، ومقالاته، ومحاضراته، وخطبه.

وقد بقي الغزالي في سجن (الطور) بمصر نحو سنة في حكومة إبراهيم عبد الهادي باشا.

٦ ـ وقد ألّف الشيخ الغزالي كتباً كثيرة، كل كتاب منها يمثل صموداً فكرياً، ومقاومة إسلامية للهجمات التي تعرّضَ لها الإسلام في هذا القرن العشرين... قرنِ الاستقلالِ المزيّف والانهزامِ الفكري.

ـ وليست كتب الشيخ الغزالي مثل كتابات كثير من المؤلفين الذين يؤلفون الكتب، لكي يقدّموا للناس فكراً، أو تصورات نظرية، أو إرشادات، أو مواعظ مجردة؛ بل كانت كلُّ كتبه نتيجةَ معاناةٍ وتجربةٍ نفسيةٍ أو اجتماعيةٍ أو فكريةٍ، ولذلك فكتاباته ترتبط بالواقع، وتنطلِقُ من التصوّر الإسلامي الشمولي، وتلبّي

ـ في الوقت نفسه ـ حاجاتٍ نفسية أو فكرية أو عملية لدى الأفراد أو المجتمعات المسلمة وغيرِ المسلمة.

هذا ـ بالطبع ـ إذا ما استثنينا بعضَ الدراسات التي قدّمها تلبيةً لاحتياجات فكرية، يهدف منها إلى إصلاح مسار الفكر الإسلامي، مثل كتاباته حول (التفسير الموضوعي للقرآن الكريم)، وكتابه: (فقه السيرة)، وكتابه: (كيف نفهم الإسلام)... وغيرها.

هذا... وقد حاولنا حصر مؤلفات الشيخ الغزالي وترتيبها فجاءت على النحو الآتي:

١ ـ أزمة الشورى في المجتمعات العربية والإسلامية.

٢ ـ الاستعمار، أحقاد وأطماع.

٣ ـ الإسلام في وجه الزحف الأحمر.

٤ ـ الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين.

٥ ـ الإسلام والأوضاع الاقتصادية.

٦ ـ الإسلام والاستبداد السياسي.

٧ ـ الإسلام والمناهج الاشتراكية.

٨ ـ الإسلام والطاقات المعطّلة.

٩ ـ تأملات في الدين والحياة.

١٠ ـ تحقيق ذم الهوى، لابن الجوزي.

١١ ـ تحقيق صيد الخاطر، لابن الجوزي.

١٢ ـ تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل.

١٣ ـ التعصُّب والتسامح بين المسيحية والإسلام.

١٤ ـ التفسير الموضوعي للقرآن الكريم .

١٥ ـ الجانب العاطفي من الإسلام .

١٦ ـ جدِّد حياتك (دراسة نفسية إيمانية) .

١٧ ـ جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج .

١٨ ـ حصاد الغرور (تعليق على نكبة يونيو ١٩٦٧م) .

١٩ ـ الحقّ المرّ (عدة أجزاء) .

٢٠ ـ حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة .

٢١ ـ حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي .

٢٢ ـ خُلُق المسلم .

٢٣ ـ خُلُق المسلم (الجزء الثاني) .

(كتاب مشترك مع الشيخين : محمد سيد طنطاوي وأحمد عمر هاشم) .

٢٤ ـ الخلل من هنا .

٢٥ ـ دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين .

٢٦ ـ الدعوة الإسلامية تستقبل القرن الخامس عشر .

٢٧ ـ دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين .

٢٨ ـ ركائزُ الإيمان بين القلب والعقل .

٢٩ ـ سِرُّ تأخرِ العرب والمسلمين .

٣٠ ـ السنةُ النبوية بين أهلِ الفقهِ وأهل الحديث .

٣١ ـ صيحةُ تحذيرٍ من دعاةِ التنصير .

٣٢ ـ ظلامٌ من الغرب .

٣٣ ـ عقيدة المسلم .

٣٤ ـ علل وأدوية .

٣٥ ـ الغزو الثقافي يمتد في فراغنا .

٣٦ ـ فقه السيرة .

٣٧ ـ فن الذكر والدعاء عن خاتم الأنبياء .

٣٨ ـ في موكب الدعوة .

٣٩ ـ قذائف الحق .

٤٠ ـ كفاح دين .

٤١ ـ كيف نتعامل مع القرآن .

٤٢ ـ كيف نفهم الإسلام .

٤٣ ـ ليس من الإسلام .

٤٤ ـ المحاور الخمسة للقرآن الكريم .

٤٥ ـ مستقبل الإسلام خارج وطنه : كيف نفكّر فيه؟ .

٤٦ ـ المسلمون يستقبلون القرن الخامس عشر .

٤٧ ـ مشكلات في طريق الحياة الإسلامية .

٤٨ ـ مع الله ، دراسات في الدعوة والدعاة .

٤٩ ـ معركة المصحف في العالم الإسلامي .

٥٠ ـ من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث .

٥١ ـ من هنا نعلم .

٥٢ ـ ١٠٠ سؤال عن الإسلام (جزآن) .

٥٣ ـ نظرات في القرآن.

٥٤ ـ هذا ديننا.

٥٥ ـ هموم داعية.

(بالإضافة إلى المحاضرات والأحاديث الإذاعية والتلفازية الكثيرة التي ألقاها على امتداد العالم الإسلامي).

وفـاته:

دُعي الشيخ الغزالي سنواتٍ متتابعةٍ لحضور مهرجان (الجنادرية) الذي يقام بالرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ـ حرسها الله وبلاد المسلمين من كل مكروه ـ لكنه كان يعتذر لظروفه الصحية.

أما في هذه السنة (١٩٩٦م) التي لقى الله فيها، فقد كان هناك شيء يدفعه، وكأنه يناديه لقبول هذه الدعوة.

كان الشيخ الغزالي يريد أن يدفن بجوار الإمام الشافعي في القاهرة؛ لأنه ـ وهو الحنفيُّ مذهباً ـ كان يكنُّ كلَّ التعظيم والإجلال للأئمة الأربعة، ولم تكن أحلام الشيخ الغزالي، وهو المقيمُ في القاهرة، تصلُ به إلى أن يحلمَ بأن يدفن في البقيع. . . لقد أرادَ أمراً، وأرادَ الله أمراً آخر، فقد كُرِّمَ الشيخُ الغزالي من السعودية كثيراً، عاش هناك أستاذاً كبيراً مبجّلاً، يحظى بتقدير الجميع، ولكن عندما أصدر الشيخ كتابه (السنَّة النبوية) اندفعت قلّةٌ قليلةٌ للهجوم على الشيخ باسم حماية سنة رسول الله ﷺ، وقد كان الأمر مقبولاً لو بقى في حدوده العلمية والأخلاقية، في ضوء تاريخ الشيخ الغزالي ومكانته، لكنّ بعضَهم سمحَ لنفسه، بأن يخرجَ عن هذه الحدود. . . وقد قابلَ الشيخُ الغزاليُّ ذلك كلَّه بالصبر والحِلْم، ولم تخرجْ منه كلمةٌ واحدةٌ نابيةٌ ضد هؤلاء بأشخاصهم، إلا أنّه كان في أعماقه، حزيناً جداً؛ لما يقعُ في الساحة الإسلامية التي يتعاملُ فيها بعضُهم، بمنطقٍ معكوسٍ، «أشداءُ على بعضهم، مهذّبونَ مع أعدائهم»!!!.

فشاءت حكمة الله تعالى أن يُرَدّ إليه اعتباره، وأن تعيش المملكة كلّها لحظاتِ حبٍّ واهتمامٍ بالغَيْن، حكومةً وشعباً، عندما قضى الله أمره، وفاضت روح الشيخ الغزالي في الرياض مساء الأحد ١٩ شوال ١٤١٦هـ (٩/ ٣/ ١٩٩٦م)، وتحرّكت طائرةٌ ملكيـة إلى القاهرة تحمل إلى السـعودية أسرته الكريمة، ثم تحركت طائرة ملكية أخرى تحمله إلى البقيع، ليدفنَ مع طليعةِ خيرِ أمةٍ أُخرجتْ للناس . . . مع صفـوةِ الصفوةِ، رضي الله عنهم، تلامذةِ محمّدٍ ﷺ، الذين عـاش معهم الغزالي بوجدانه طيلةَ عمره. رحمه الله رحمة واسعة.

* * *



الغزالي والوحي والعقيدة

يُشَبِّهُ الشيخُ الغزاليُّ الوحْيَ الإلـهيَّ بماء النيل في مجراه الأعلى، ينزِلُ من السماء صافياً نقياً؛ ثم يختلِطُ بالأرض، فيحمل من ترابها وغُثائها وأخلاطِها ما يجعلُ الانتفاعَ به صعباً حتى ينقّى الماء، فيعود سماوياً كما كان.

وما أشبهَ الدين بماءِ النيل، وما أحوجَه إلى التنقيةِ من أهواءِ الناسِ، وشهواتِ الأغنياءِ والأقوياء والضعافِ.

إن الذي يؤسف له ـ كما يرى الشيخ الغزالي ـ أنّ الإسلام هو ألْيَقُ الأديان بالعصر الحاضر، وأقدرُ الأديانِ على اقتيادِ الإنسانية في هذه المرحلة اليقظةِ من تاريخها، وفي تعاليمه إشباعٌ حقيقيٌّ للعقلِ والضميرِ، وإمتاعٌ للفكرِ والعاطفةِ. لكنّ المأساةَ أنّ الذين يعملون به يصدون عنه؛ لأنّهم يسيئون فهمَه، ويفْرِضون عليه صُوَراً لا مصدرَ لها إلا طباعُهم المريضة، ولا ينكِرُ أحدٌ من المهمومين بالدعوة الإسلامية أنّ حالة الأمة الإسلامية يستحيلُ أن تكون نصيراً لدينها.

ومن هنا كان حرصُ الغزالي شديداً على تأصيل المعرفة الإسلامية، وقد سعى إلى عرض (علم الكلام) عرضاً جديداً، يُصوِّر به عقائدَ الإسلام من القرآن الكريم والسيرة العطرة تصويراً يجذِبُ أهلَ الشرق والغرب إليه.

وقد تمنّى لو أنّ الفقه الإسلامي وجدَ عارضين جدداً، يقدمون قضاياه في ملفّات حيةٍ، تجعلُ انجذابَهم إليه من أعماقهم.

فالثقافة الإسلامية حتّى الآن لا تزالُ في مادتها، وفي عرضها، وفي رجالها مأساة لا بدَّ من معالجتها بحكمةٍ، وإلا ضاعت رسالتُنا من بين أيدينا.

ويؤمن الشيخ الغزالي بأنّ الله سبحانه وتعالى ربّى محمّداً ﷺ ليربّي به العرب، وربى العربَ بمحمّدٍ ليربي بهم الناس كلَّهم. . . وهذا المعنى تكرَّرَ في موضعين من القرآن الكريم:

أولهما: في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وثانيهما: في قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

فالمسلمون أمةٌ مكلّفةٌ برسالةٍ يجبُ أن تكونَ من الناحية العلمية مشرّفةً متداولةً محميّةً، أما أن تُتركَ لتعْصِفَ بها الأدواء والأهواء، فهذه جريمة أو خيانة عظمى.

ولو قيل: كيفَ نُعلِّم العقائد الآن؟.

يكون الجواب: أن يـؤتى بكتابٍ مثل كتاب: (الله يتجلّى في عصر العلم) أو كتـاب: (العلم يدعو إلى الإيمان)، وتـوضَعَ فصولُه العلميـةُ تحت الآيات القرآنيـة العلمية، التي تتحدَّثُ عن الكـون، والتي تربِطُ الأديـانَ بالنظر في هذا الملكوت. . . ومثل هذا منهاجُ الشيخ: نديمُ الجسر في كتابه (قصة الإيمان)، والشـيخ وحيد الدين خان في كتـابيه: (الإسلام يتحدّى)، و(الدين في مواجهة العلم).

وفي كثيرٍ من كتبه ومقالاته وأحاديثه أعلن الشيخ محمد الغزالي أنه سلفيُّ العقيدةِ على منهجِ الصحابة والتابعين، وأنّه محِبٌّ للصحابة، سائرٌ على دربهم. . . وأنّه يفهم جيداً معنى قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «خيرُ النّاسِ قَرني ثُمَّ الذين يلونَهُم»[1]، لكنّه مع ذلك لا يتصوَّرُ أنّ هناك فجوة نفسية أو فكرية بينه وبين سلفنا

---

(١) أخرجه الترمذي والحاكم من حديث عمران بن الحصين؛ انظر (صحيح الجامع)، رقم (٣٢٩٤).

الأول. فهو مع السلف يحمِلُ دعوتهم ويُثني عليهم... لأنّهم أصدقُ الناس فطرةً وأقومُهم ديناً وأرشدُهم عقلاً وفطرةً.

لكنّ الشيخ الغزالي ـ مع إيمانه هذا ـ يمد الطرفَ إلى الحاضر والمستقبل، ذلك لأنّ الإسلامَ دين طويل المدى، وصاحبُ الرّسالة عليه الصلاة والسلام قال: «أمتي كالغيث لايدرى أوله خير أو آخره». والمستقبل لاتجوز مصادرته، والتعجل بالحكم بأنّ البشريةَ تسيرُ من انحدارٍ إلى انحدارٍ تشاؤمٌ لا يجوز!!.

يقول الشيخ الغزالي: إنّ الأمة التي لا تاريخَ لها ليس لها حاضرٌ ولا مستقبل، ولذلك فأنا ـ مع حبِّي العميق للسلف ـ أحتفي بسائرِ العباقرةِ من أئمة الفقهِ والأدبِ والعقيدةِ وسائرِ فنون المعرفة، الذين ظهروا في تاريخنا... ولماذا تقوم بين جيلنا وبينهم خصومة وهم جميعاً يقومون على الكتاب والسنّة، ويرفعون علم التوحيد، ويجندون مواهبهم ومن معهم لخدمة الإسلام وقيمه وأمته؟ يجب أن نلتمس الخير في آرائهم ولا نتربص بهم.

ويقول الشيخ الغزالي: إنني يجب أن أحتفيَ بالخَلَف كما أحتفي بالسلف، ولا يصحُّ القولُ: إنّ هؤلاء لهم وجهٌ غير أولئك، فالهجرةُ إلى الله تعالى عندهم جميعاً، والكلُّ يبغي وجهه سبحانه وتعالى، فتقديرُهم ـ بالتالي ـ واجب وعدل.

ويقول الشيخ الغزالي: إنني عندما سألني أحدُ الناس: أتتبع رسولَ الله ﷺ أم تتبع أبا حنيفة؟.

قلت ساخراً من السؤال: أتبع كلام رسول الله ﷺ كما فسره لي أبو حنيفة رحمه الله. وقيمة أبي حنيفة ليست مستمدة من ذاته، وإنما من العلم الديني الذي تصدَّى له، وللانتساب إلى المنهج النبوي الذي شَرُفَ به. وكذلك سائر أئمتنا إلى يوم الناس هذا.

والحقيقةُ العلمية عندي تستمدُّ وجهتها من شاهدين عدلين هما: كتاب الله تعالى، وسنة رسول ﷺ، فليس هناك بديلٌ ولا شريكٌ في هؤلاء الشهداء.

ويقول الشيخ الغزالي: إنني عندما أقرأ التفسير، أو السنّة، أو العقائد، أو السيرة، يسيطر عليّ شعورٌ بأنّ الحقيقةَ شائعةٌ في هذه المعارف، وفيمن حملها إلينا من السلف الأول إلى القرن الأخير.

فنحنُ أمةٌ لا يجحدُ صغيرُها كبيرَها، ولا يتبرّمُ تلميذُها بأستاذِها، ولا تستمدُّ العزّةَ إلاّ من مصدرها الأصلي ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فهل أقبلُ بعد هذا الشعور الغامر، أن يجيءَ إنسانٌ يخالفني في بعض الفروع، أو الاجتهادات، فيتّهمني في عقيدتي، وسيرتي، وديني، ودنياي، كما يفعلُ بعض الشباب الثائر؟!!.

وهذا الذي يرتكبُ هذه الجريمة هو كما قال ابن الجوزي في أمثاله: «في قلبه كِبْرُ فرعون» (ولا حول ولا قوة إلا بالله!!).

إنّ العملةَ المتداولة في ميادين الحياة الآن إنما هي الأخلاق التي يسمونها (إنسـانية)، ونبيّنـا عليه الصلاة والسـلام هو القائل: «إنما بعثتُ لأتمّمَ مكارمَ الأخلاق»، فأينَ رصيدُنا من هذه العملة المبذولة الآن بين الناس؟!!.

فالعلامةُ المميِّزةُ للعلم الصحيح والثقافة النقية الصادقة هي الشارة الأخلاقيّة المحمديّـة التي يجب أن تظهرَ نقيـةً ناصعةً على المواريث القديمة والحديثة على السواء.

ـ لقد كنت أقول دائماً في عالم سلفي نقي مخلص مثل الشيخ (عبد العزيز ابن باز): إنّه من طلاب الآخرة، وممّن يؤثرون ربهم على دنْياهم، وقد تكون بيننا خلافات فقهية، فما قيمة هذا الخلاف، وما أثره؟!!.

ـ إن الأئمة الكبار اختلفوا، بل إنّ داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ قد اختلفا في الحكم، وهما من هما في النبوّة والعلم والحكمة!!.

* * *

ولقد ذكرنا قبل ذلك أن الشيخ الغزالي أَعْلَنَ غير مرة أنه سلفيُّ العقيدة، لكنّ الجدير بالذكر أن السلفيَّة عند الغزالي لا تعني مذهبية معينة، ولا حركةً إصلاحية خاصة ـ مع تقديره لكل حركات الإصلاح القائمة على الكتاب والسنّة ـ بل تعني السير على هدي الصحابة والتابعين في العقيدة والسلوك، وبناء الإنسان، وبناء الحضارة، والعودة إلى الإسلام ظاهراً وباطناً، وترسُّم خطا السلف الأوائل في صدقِ الإيمانِ، وحسنِ العملِ، ومن أجل ذلك يهيبُ الشيخ الغزالي بالمسلمين «أن يعودوا إلى كتاب الله وسنة رسوله وألا يسمحوا للمغرضين والطامعين أن يستغلوا تفاوتَ الأنظار في أمورٍ يسيرةٍ ليقطعوا ما أمر الله به أن يوصل»[1].

ـ وعلى العكس مما يروجُ لدى بعضهم من وجود فجوةٍ بين السلفية والعقلانية، يرى الشيخ الغزالي أن السلفيةَ: «نزعةٌ عقليةٌ وعاطفيةٌ ترتبِطُ بخيرِ القرونِ، وتعمِّقُ ولاءَها لكتاب الله وسنة رسوله، وتحشد جهودَ المسلمين المادية والأدبية لإعلاءِ كلمة الله، دون نظرٍ إلى عرق أو لون، وفهمها للإسلام وعلمها به يرتفع إلى مستوى عمومه وخلوده، وتجاوبه مع الفطرة، وقيامه على العقل»[2].

ويعلق الدكتور محفوظ عزّام على هذا الفقه الرفيع العقلاني للسلفية فيقول: هذا هو الفهم الواعي للشيخ عن السلفية، ومن ثَمَّ فإنَّ أي اتجاهٍ يهتمُّ ببعض الأمور الجانبية فحسب، يعد خارجاً عن السلفية، ولا يمثلها التمثيلَ الصحيح... والسلفيةُ هنا عنوانٌ كبيرٌ لحقيقةٍ كبيرة، أساسُها العقلُ الحرُّ المكتشف الدؤوب، الذي احترمَ نفسَه عندما توقَّفَ عن البحث في الذات العليا، وحقيقة كيفية الصفات.

من أجل ذلك يرفض الشيخ النظريات الكلامية التي خلفتها لنا حرب الجدل بين الفرق الكلامية، وقد نقد الشيخُ هذه الفرق من خوارجَ ومعتزلةٍ ومرجئةٍ

---

(1) انظر الشيخ الغزالي، حصاد الغرور، ص٢٧٤، طبعة دار القلم ـ دمشق ١٩٩٨م؛ وانظر عقيدة المسلم، ص٢١٣، نشر القاهرة، ١٩٧٦م.

(2) محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص١١٤ ـ طبعة دار القلم ـ دمشق ١٩٩٨م.

وغيرهم: «فالخوارجُ حين كفّروا العصاةَ كانوا جهلةً بطباعِ البشر، وعجزةً عن فهمِ الأسباب الداخلية والأصلية في الانحراف عن الطريق القويم. والمرجئةُ حين هوَّنوا قيم الصالحات ومقارفة السيئاتِ كانوا جهلةً بحقِّ الله، وما أوجب على عباده، وكانوا عجزةً عن صياغة المجتمعات وتحصينها ضد التحلل والعطب!!.

ويرى الشيخ الغزالي أن كثيراً من أفكار الفرق الإسلامية الكلامية، فضلاً عن تقليد المعتزلة لليونان، ولا سيما (أرسطو) في فهم الألوهية ـ أفكارٌ لا وزن لها من ناحية العقل والنقل، وكان الأجدرُ أن يبقى منهج المسلم يَخُطّ أصولَ الإيمان كما ورثناه عن نبينا ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، وأن يشتغلَ الجمهورُ بما يرفع مستواه في معاشه ومعاده[1].

وكما أدان الشيخُ هذه الفرق الكلامية، وأدان الانشغال بها ـ على حساب تجلية العقيدة الإسلامية من خلال إبداع الله في الكون والإنسان والحياة ـ كذلك أدان الشيخ انشغال بعض المتعصبين بالتقليل من شأن بعض المفكرين المسلمين، أو تكفير بعض الفرق، أو الأشخاص، ممن يخالفهم المتعصبون، وقد دعا المسلمين السلفيين وغيرهم إلى الكف عن تجديد المعارك بين الموتى، والكف عن اجترار الخلافات القديمة... وهو يقول في ذلك: ماذا يكسبه هؤلاء من شتم الأشعري والرازي والغزالي والقرطبي وبقية علماء المسلمين؟؟ أليس الأولى بهم أن يدركوا شؤم الخلاف ويجنِّبوا الأمة بلاءه الآن[2]؟..

وبعيداً عن منهج الفلاسفة الذين لا يكادون يتفقون على رأي، والذين يناقض بعضهم كلامَ بعض... وذلك على العكس من الأنبياء، الذين يؤكد كلٌّ منهم عقيدة الذين سبقوه.

---

(١) انظر الشيخ محمد الغزالي: صور من حياة مجاهد عظيم، دراسة حول العقيدة الإسلامية في فقه الشيخ الغزالي، د. محفوظ عزام، ص٨٨ ـ ٨٩، نشر دار الصحوة ـ القاهرة ١٤١٣هـ.

(٢) محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ص٦٩، دار القلم ـ دمشق ٢٠٠٠م.

وكذلك على العكس من كلام الماديين الذين يشبِّههم الشيخ الغزالي بالذبابة التي تحاول أن تعرف ما يدور في رأسه؛ لأن الماديين يحاولون إخضاع ذات الله لعقولهم.

على العكس من هؤلاء وأولئك، يقدِّمُ الشيخ الغزالي عقيدة التوحيد صافية نقية بلا تجسيد لله أو تشبيه أو تأويل أو تعطيل لصفاته قائلاً: إننا ـ معشر الإنس والجن ـ لا نعرف إلا القليل عن عالمنا... فكيف يدرك عالم الغيب من يجهل عالم الشهادة؟ وكيف يحاول الغرور البشري اكتشاف الذات أو الصفات العليا؟ أحسب أنّ البطالةَ النفسية والتطاوُلَ الرديء من وراء الترف العقلي.

وقد ظهر في عالم الكلام جماعة يوغلون في التنزيه إلى حدِّ التجريد، وآخرون يبالغون في الإثبات إلى حد التجسيد، والقرآن الكريم بعيدٌ عن المسلكين، ونحن لا نقبل إلا منهاجه، ولا نأخذ عقائدنا إلا من توجيهه الحق، ننطلق أو نتوقف وفق ما يريد(١).

ويقدم الشيخ الغزالي نموذجاً من النماذج الدالّة على المنهج السليم في معالجة قضايا العقيدة، فيثبتُ وجودَ الله من خلال أربعة أدلة هي:

١ ـ **دليل الإبداع**: وفحوى هذا الدليل أن الإنسان لم يَخْلِق نفسَه، ولم يَخْلِقْ غيرَه من الكائنات، ولم يدَّع أحدٌ من البشر أنه خالق حتى الذين ادَّعوا الألوهية، ولم ينتحل هذه الصفة ـ أيضاً ـ حيوان ولا جماد، وما دامت الأشياءُ لا تخلقُ نفسَها ولا تخلُق غيرَها، فلم يبق إلا أن يكونَ اللهُ ـ وحده ـ هو الذي يخلق من العدم، ويقول الله ذلك في القرآن ﴿: أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٦].

٢ ـ **دليل العناية**: وفحوى هذا الدليل أنّ هذا الترتيب المحكم في الكون

---

(١) سر تأخر العرب والمسلمين، ص٧١.

لا بد أن يكون قد نشأ عن تقدير وحكمة، وقام به فاعل يعرف ما يفعل، وليس عن صدفة واتفاق. . .

٣ ـ دليل الحركة: وفحوى هذا الدليل أنّ الكواكبَ السيارة في أعماق الفضاء تتحرك بانتظام، وفي سرعة واحدة، وتلتزمُ مداراً واحداً لا تنحرفُ عنه يميناً ولا يساراً، ولا تتصادم. . . فمن الذي هيمن على نظامِها، وأشرفَ على مدارِها؟ بل من الذي أمسك بأجرامها الهائلة، ودفعها تجري بهذه القوة الفائقة؟ لا شك أنه الله.

٤ ـ دليل الحدوث: وفحوى هذا الدليل أنّ لكلِّ شيءٍ في الكون بدايةٌ معروفةٌ، سواء كان إنساناً أو حيواناً، أو نباتاً أو جماداً، ومعنى ذلك أنَّ الكون كله محدَثٌ، وما دام الكون محدثاً، فلا بدَّ له من محدِثٍ، وهو الله تعالى، يؤكد ذلك العقل والعلم.

والواقع أن العقل الذكيَّ، والبحثَ النزيه، والفكرة المبرَّأة عن الغرض، المستقيمةَ على النهج، تتأدى بصاحبها ـ حتماً ـ إلى الله، وتقف به خاشعاً أمام الشعور بعظمته وجلاله.

إن العقل يقر بالله تعالى، غير أنه يخطِئ في التفاصيل المتعلقة به. وسببُ خطأ العقل في هذه التفاصيل أنه لم يهتدِ بوحي الأنبياء والرسل[١].

ويثبت الشيخ الغزالي أنّ التوحيدَ قانونُ الوجود ونظامُ الحياة، فلا يستقيمُ الوجودُ إلا بإلـه واحد، له الأسماء الحسنى، والكمالات العليا، ولو كان في الدنيا آلهةٌ إلا الله لفسدت واضطرب أمرُها، وليس لله ندٌّ، أو ضدٌّ، أو شريكٌ، من إنس أو جن أو ملائكة، وليس له ولد، وعيسى بن مريم مجرَّدُ نبي صالح، مثلُه مَثَلُ الأنبياء جميعاً من نوح وإبراهيم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام جميعاً، ولم يفكِّر عيسى يوماً في أن يدّعي الإلـهية مع الله. . . وكما يقول الله تعالى في

---

(١) صور من حياة مجاهد عظيم، محفوظ عزام، ص٩٠ ـ ٩٣.

القرآن: ﴿ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ١٧]، وكما لم يفكر عيسى في هذا الأمر الخطير، فكذلك لم يفكر جبريل أن يدعي الإلـهية مع الله، فكلاهما أعقل من هذه المجازفة المهلكة.

وليس لشيءٍ في الأرض أو السماء وجودٌ من ذاته، بل كل وجودنا من الله، وكل الحياة بكائناتها من إنسانٍ وحيوانٍ ونباتٍ تشبه المصابيحَ الكهربائية، التي لا تضيء من ذاتها، وإنما تضيء بتيار كهربائي يسري في الأسلاك إليها، وإذا انقطعَ هذا المدد الخارجيُّ أظلمت، ونحن البشرُ كسائر المخلوقات، وُجِدْنا بإيجاد الله، وبقينا بإمداد الله، ولولا اللهُ لكنّا أصفاراً، ولما برزنا من العدم: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣].

إن محمداً ـ كما يقول الشيخ الغزالي ـ ولد من خمسة عشر قرناً، وولد عيسى من عشرين قرناً، وولد موسى من ثلاثين قرناً، وهؤلاء الرجال الكبار، ليس لهم من الأمر شيء، وإذا كان لهم في التاريخ قدر، فلأنهم عبيد أخلصوا لربهم، وتفانوا في مرضاته... أما ذرات أبدانهم فهي، كبقية أجزاء الكون، خاضعة له، هاتفة بمجده ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

إن وحدانية الله حقيقة أزلية أبدية، وكذلك افتقار العالم إليه، العالم أجمع من العرش إلى الفرش!.

ويؤمن الشيخ الغزالي ـ كما يرى الدكتور يوسف القرضاوي ـ بأن تعليم العقائد الإيمانية يقوم على دعامتين:

الأولى: القرآن الكريم، الذي يخاطِبُ الفطرةَ السليمةَ، والعقلَ الرشيدَ... ويلفت النظر إلى الكون والإنسان والتاريخ، لتكون مسرحاً للتفكير، ويبتعد عن الألغاز والتعقيد. وهو يتفق هنا مع الإمام ابن الوزير في ترجيح (أساليب القرآن على أساليب اليونان)، ولهذا خَصَّ الشيخ الغزالي قضيةَ توحيدِ

الله بمحورٍ من المحاورِ التي رأى أنها تشكِّلُ (المحاور الخمسة للقرآن الكريم).

والثانية: العلم الحديث، وما كشفَ من آيات الله في كونه، ومن بدائع صنع الله في خلقه: في عالم الأفلاك، وفي عالم الجمادات، وفي عالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان، وفي العوالم كلها من الذرة إلى المجرة... وبذلك يلتقي كلام الله في كتابه مع فعل الله في كونه، وكلاهما يدل عليه ويهدي العقول والقلوب إليه.

* * *

الشيخ الغزالي
رجل القرآن

ـ مفتاح شخصية الشيخ محمد الغزالي : القرآن ، فهو ـ بحق ـ رجلُ القرآن ! .

ـ وللشيخ الغزالي كتبٌ مباشرة في الحديث عن القرآن الكريم .

ـ وكلُّ كتبه ـ مع ذلك ـ وثيقةُ الصلةِ بالقرآن ، منطلقةٌ منه ! ! .

ـ وصلة الشيخ الغزالي بالقرآن صلةٌ مباشرةٌ منذ حفظ القرآن في صباه، وظل طوال عمره ينهل من القرآن في أحاديثه وشواهده ، وكان من أحسن الدعاة ، الذين يستدلون بالآية القرآنية في حديثه ، فتشعر كأن الآية مصباحٌ يضيء كلامه .

ويُعدّ كتاب (**نظرات في القرآن**) من الكتب الأولى التي كتبها الشيخ عن القرآن، وقد صدر الكتاب، والشيخ في الأربعين من عمره، فطبعته الأولى صدرت سنة ١٩٥٨م ، وقد عالج فيه قضايا تتصل بالقرآن نفسِه ؛ كنزوله ، وجمعه ، وتواتر هذا الجمع ، كما عالج فيه بعض النماذج والصور التي تمثل القضايا الكبرى في القرآن الكريم ومنها :

ـ الإنسان في القرآن .

ـ والألوهية في القرآن .

ـ والنبوات في القرآن .

ـ والثروة في القرآن .

ـ وفساد الأمم في القرآن . . .

ـ ثم عالج في هذا الكتاب أيضاً قضية الإعجاز القرآني من النواحي النفسية والعلمية والبيانية وغيرها.

أما كتاب (**معركة المصحف في العالم الإسلامي**) فيأتي بعد كتاب (**نظرات في القرآن**)، وإن كان الكتاب الأخير مرتبطاً بمعركة الشيخ الغزالي مع الاشتراكيين والشيوعيين، الذين حاولوا نشر الإلحاد باسم الاشتراكية، ونشر الانحلال باسم التقدمية، فقاد الشيخ الغزالي المعركة ضدهم، وقال لهم: إن القرآن يعلّمني ويعلّمُ البشريةَ أمرين مهمين:

أولهما: أنّ الإنسان المسلم ـ بل الإنسان كجنس ـ سيد هذا الكون، والمستخلَف من عند الله، ومن حق الإنسان أن يسخّر أي شيءٍ في الكون في المرافق المختلفة، وذلك في إطار المصلحة المحققة، والدين والخلق.

وثانيهما: أن هذه الحياة الأرضية تمهيدٌ لما يتْبعها من حياة أخرى، وبالتالي فلا بدَّ من العمل لله، والولاء له، والمصحف هو طريق تحقيق هذين الأمرين، ففي المصحف كلُّ ما يفتقدُ إليه العالم من طُهْرٍ وعقل ورشد، وقد ظلَّ المسلمون بهذا القرآن أنضرَ أهلِ الأرض عيشاً، وأرقاهم فكراً، وأعلاهم مستوًى!.

وفي مرحلة تالية كتب الشيخ الغزالي كتابه: (**المحاور الخمسة للقرآن الكريم**)، وهو يرى أنّ المحاور الكبرى للقرآن الكريم خمسة، وهي:

المحور الأول ـ توحيد الله (الله الواحد):

فالتوحيد قلب الإسلام، وكان طبيعياً أن يكون القضيةَ الأولى في القرآن، ويضع الشيخ الغزالي تأصيلاً للمنهج القرآني في إثبات وحدانية الله، وهو يرفض المنهج اليوناني القائم على المنهج الجدلي الصوري كمصدر لفهمنا، فالمنهج القرآني هو الذي ينبغي أن يعتمده الناس طريقة لإثبات عظمة الله، وإقدار الله حق قدره، وهو المنهج الأسلم فكراً، والأنقى عقيدةً، والأصدق وحياً، وهو التصور الذي يليق بعظمة الله.

المحور الثاني ـ وهو يرتبط بالمحور الأول، فهو عن (الكون، الدال على الخالق):

ذلك أن التصور القرآني للكون هو الدليل الأكبر على عظمة الخالق، وهو الآيـة العظمى بنسـيجها البديـع، ونظامها الدقيـق، وحركتها المنضبطـة، التي لا تتخلّف جزءاً من مئة من ثانية واحدة . . . إن آيات الله في الكون ـ بحق ـ من أقوى الأدلة على عظمة الله الواحد.

المحور الثالث ـ (القصص القرآني):

فمـن العجيـب أن قـدراً كبيـراً مـن القـرآن يعـالـج مـا يُسمّـى بـالقصـص القرآني . . . ومعالجته ليست لمجرد أن يكونَ القرآنُ كتابَ تاريخٍ، أو أن يكون من بـاب الإعجاز القرآني، بـل الأمر أعمق من ذلـك، وإن كان ذلـك جزءاً من الإعجاز، فالمقصد الأسمى أن يفهم المسلمون سُنن الله الكونية والاجتماعية، وأن يتفاعلوا التفاعل الصحيح معها.

المحور الرابع ـ (البعث والجزاء):

فلقد تحدّث القرآن حديثاً مستفيضاً عن البعث والجزاء، وكأنهما حاضرٌ يراه الناس . . . ولا غرو في ذلك، فالحاضر والمستقبل مصطلحات خاصة بنا، لكنّها بالنسبة لعلم الله سواء، فالماضي والحاضر والمستقبل عنده في مستوى واحد من العلم إجمالاً وتفصيلاً . . . وعلينا تصديق الله سبحانه في كل ما يقوله؛ لأنّ الكذب عليه مستحيل، ولأنّ عدم العلم عليه مستحيل أيضاً، ولأن معرفته ـ سبحانه ـ معرفة مطلقة، وليست نسبية كمعرفتنا.

المحور الخامس ـ (التربية والتشريع):

وهذا المحور الأخير مرتبطٌ بالإيمان بالبعث والجزاء، وتقدير رقابة الله للإنسان؛ علماً بأن الإيمان بالغيب من أقوى الأسلحة التي تحقق الفعالية والنجاح للتربية والتشريع.

وللشيخ الغزالي ـ بالإضافة إلى هذا اللون من المعالجة الشمولية للقرآن ـ (تفسير موضوعي للقرآن) يعالج فيه كل سورة من سور القرآن على أساس أنها وحدة تدورُ حولَ قضية محورية واحدة، ولذلك فهو يربط أجزاء السورة ببعضها، مكتشفاً الصورة الخفية التي تشد أجزاءها، والدلالات المستنبطة منها.

ولشدة حرص الشيخ الغزالي على الدراسات القرآنية التي تؤدي إلى الفقه بالقرآن، والمعايشة الصحيحة له، كان يدعو إلى العمل على استيعاب معاني القرآن وأهدافه. . . يقول:

«إن الوعي بمعاني القرآن وأهدافه يعطي الإطار العام للرسالة الإسلامية، ويبين الأهم فالمهم من التعاليم الواردة، ويعينُ على تثبيت السنن في مواضعها الصحيحة. . . والإنسانُ الموصول بالقرآن دقيقُ النظر إلى الكون، خبيرٌ بازدهار الحضارات وانهيارها، نيّرُ الذهن بالأسماء الحسنى والصفات العلا، حاضرُ الحسّ بمشاهدة القيامة وما وراءها، مشدودٌ إلى أركان الأخلاق والسلوك ومعاقد الإيمان، وذلك كلُّه وفقَ نِسَبٍ لا يطغى بعضها على بعض، وعندما يضم إلى ذلك السنن الصحاح مفسِّرة للقرآن ومتممة لهداياته فقد أوتى رشده»[1].

* * *

وهكذا، ومن خلال هذا الوعي بالأهمية السامية للقرآن في حياة البشرية، كان اهتمام الشيخ الغزالي، وكانت دعوته الملحّة للعناية به، وكان خوفه من أن تطغى العناية بالحديث الشريف على حساب العناية بالقرآن، فضلاً عن أن تطغى الثقافات الأخرى، التي ربما تضعُ في الذهن البشري عوائقَ تحول دون التعامل الصحيح مع القرآن.

وقد لا أكون مبالغاً إذا قلتُ: إنه من باب فرط الغيرة على القرآن، ومن الإيمان بوجود أخطاء وقعت في الاجتهاد الإسلامي عندما ابتعد بعض المجتهدين

---

(١) انظر هموم داعية، ص٢٥، ط٢، دار القلم ـ دمشق.

والمحدثين عن الفقه الصحيح بالقرآن. . . من فرط هذه الغيرة على القرآن كتب الشيخ الغزالي كتابه الذي أحدث دويّاً عظيماً وهو كتاب (السنَّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث). . . فقد انزعج الشيخ الغزالي من وجود بعض الذين يشهرون بعض الأحاديث في وجوه الناس، دون أن يربطوها بالقرآن، أو بالأحاديث الأخرى، ودون أن تتوافر فيهم شروط الاجتهاد، فكانوا ـ بهذا المنهج المنفصل عن القرآن وشروط الاجتهاد ـ سبباً في قلاقل وفتن كثيرة عانتها الصحوة الإسلامية.

ولعلّ الشيخ في معالجته لهذا الخلل بالغ فوقع في اجتهادات خاطئة. . . لأن المعالجات التي تعتمد على ردود الأفعال كثيراً ما تقع ـ في الجانب الآخر ـ فيما تُحذِّر منه ـ غفر الله له.

ويأتي كتاب (**كيف نتعامل مع القرآن**) تتويجاً رائعاً لرحلة الشيخ الغزالي مع القرآن ومدارسته له، ويُعدّ الكتاب آخر مؤلفات الشيخ الغزالي المباشرة في الدراسات القرآنية، وهو مأدبة دسمة انطلقت من فكرة حوارية وقف وراءها المعهد العالمي للفكر الإسلامي والأستاذ عمر عبيد حسنة (جزاه الله خيراً)، ومع ذلك فهي دراسة تتوافر لها مقومات الدراسة العلمية ذات البناء الكامل، وهي دراسة بعيدة كل البعد عن المنهج الصحفي الذي يجنح إلى الخطاب العام، ملتزماً بأسلوب يعتمد البساطة والعفوية!!.

كلا. . . فالكتاب في رأيي من أفضل ما كتب في علوم القرآن بالمعنى المعاصر لهذه العلوم، وهو يعالج قضايا يجب أن تدخل في صميم علوم القرآن، مثل:

ـ تقنيات الحفظ، واستمرار التواتر في المشافهة.

ـ المناهج التراثية في فهم القرآن والتعامل معه وتقويمها.

ـ فقه السنن الكونية في القرآن.

ـ والسنن القرآنية والفقه الحضاري .

ـ الفقه بين دلالة القرآن واصطلاح الفقهاء .

ـ الرؤية الموضوعية للقرآن .

ـ شمول الرؤية القرآنية للكون المادي والمعنوي .

ـ محاور القرآن وتقصير المسلمين في إدراكها .

ـ المنهج القرآني وغيابه في مجال الفكر والواقع .

ـ السنن الإلٰهية في الأنفس والآفاق كوسيلة للشهود الحضاري : سُنَّة الأجل ـ سُنَّة التداول الحضاري ـ سُنَّة المدافعة ـ سنَّة التسخير .

ـ الإعجاز العلمي في القرآن .

ـ منهج القرآن في تغيير الأفكار والنفوس .

ـ الاستبداد السياسي ووسائل التغيير .

ـ عصمة عموم الأمة في القرآن ، وأهمية ذلك في منهج الاجتهاد .

ـ كيف نتعامل مع القرآن ليكون مصدراً للعلوم الاجتماعية .

ـ أثر الوراثة والاكتساب في حياة الأمم .

ـ تدبّر القرآن كعاصم من السقوط الحضاري .

ـ العرب في الخطاب القرآني كأمة رائدة للدعوة مرتبطة بها هبوطاً وارتفاعاً .

ـ ترجمة معاني القرآن .

ـ دور اللغة في إدراك مقاصد النص القرآني .

ـ ضوابط التفسير بالرأي .

ـ القرآن والزمن .

ـ القرآن والعلم.

ـ القرآن وفلسفة العلوم وآلات فهمها.

ـ الشهود التاريخي والشهود الحضاري في القرآن.

وهكذا ـ من خلال التعرف على الموضوعات السابقة التي عالجها كتاب (كيف نتعامل مع القرآن) ـ نجد أنفسنا أمام منهجية جديدة تجمع بين الموروث الأصيل والحديث المطلوب، كاشفة بأسلوب عالم متمكن مثقف رفيع المستوى ما يقدمه القرآن من قيم مطلقة، ثابتة ثبوت الحق والخير، ضابطة لمسيرة الحياة في إطار عريض، يضع المعالم، لكنه لا يمنع الاجتهاد، ويضع الشواطئ والضفاف، لكنه لا يمنع التنافس بين المهرة في قيادة السفن، والمهرة في السباحة.

لقد وضع القرآن الإنسان في المناخ العلمي والنفسي والأخلاقي الذي يتيح له التعامل الصحيح مع الحقائق العلمية والاجتماعية والكونية.

وقد خاطب القرآنُ الإنسانَ الفرد في كل حالاته، وخاطب ـ أيضاً ـ الجماعة الإنسانية في كل حالاتها، مجملاً ما يستحق الإجمال، ومفصّلاً ما يستحق التفصيل.

وكما تحدث القرآن عن الخلل الذي يصيب الإنسان الفرد، وعن أساليب بناء هذا الإنسان، فكذلك تحدث عن المنهج القرآني في بناء الأمم من خلال السنن الإلهية والتفاعل الاجتماعي معها، كما تحدث عن الشروط المؤهلة لسقوط الحضارات.

إننا نستطيع أمام هذه المجموعة الكبيرة من القضايا التي عالجها الشيخ الغزالي في كتابه (كيف نتعامل مع القرآن) أن نتعرّفَ على عظمة القرآن وشموليته، وكيف أنّ الله سبحانه وتعالى كان صادقاً عندما قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فالقرآن يقدم هنا الزاد المطلوب لكل العصور، حتى

تحقق الإنطلاق الإسلامي، وفلسفة التغيير الكوني، مهما كان موقعها الحضاري.

وقد انطلق المسلمون في العصور الأولى من القرآن فقادوا الحضارة، فدخل في الإسلام من دخل، وأمّا الذين لم يدخلوا في الإسلام، فقد عاشوا في منطقة (شبه الظل) يستظلون بظل القرآن وتعاليمه، داخل الأمة الإسلامية، أو خارجها، ولولا المنهج القرآني الذي يحضُّ على العلم، ويجعله عبادة، ويحثّ الإنسان على تسخير الكون، وليس على عبادة الكون، كما تفعل (الديانات الوثنية)، ويحثّه على السير في الأرض وعمارتها، وليس على الزهد والرهبنة، اللذين سادا في العصور الكنسية الوسطى. . . لولا هذا المنهج القرآني لما ظهر العلم الحديث، ولما ظهرت حركات التجديد والإصلاح في النصرانية (البروتستانتية بخاصّة)، وفي الفكر الأوروبي بصفة عامة.

وأخيراً. . . فإننا نستطيع القول مطمئنين ـ في نهاية هذا العرض ـ بأن كتابات الشيخ الغزالي حول القرآن تمثّلُ ـ بحق ـ رؤيةً تخدم المسلمين والإنسانية كلها، وتقدّم المنهجيةَ التي ينبغي أن يبلّغَها المسلمون للعالم في كيفية التعامل العقلي مع القرآن، وآليّات النظر السديد إليه.

فالقرآن ليس مجرّدُ كتاب سماوي مثل الكتب السابقة (التوراة والإنجيل) بل هو كلمة الله الخاتمة الشاملة، التي لا كلمةَ بعدها، وهو حجته الغالبة الباقية التي سيحاكم إليها البشر جميعاً يوم القيامة!! يوم يقول الكافرون والمنافقون: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وصدقوا فيما قالوا (أو سيقولون). . . وصدق الله العظيم.

* * *

الشيخ الغزالي
والسنَّة النبويّة

كان الشيخ الغزالي يُعلِّم الناس أنَّ السنَّة هي المصدر الثاني للإسلام، وأنها ضرورة لفهْم القرآن، وهي الفقه النظري والتطبيق العملي للكتاب الكريم؛ سواءٌ كانت قولاً أم فعلاً أم تقريراً، فلا يُعقل منه ـ وهذا شأنه ـ أن يُهمل السُّنة النبوية (وسيرة الرسول ﷺ في المقدمة منها)، أو يُنكر حديثاً صحَّ روايةً ودرايةً، واستقامَ مع منهج الشرع، ومقاصد الإسلام!!.

وقد جاءت كتبه زاخرة بالأحاديث النبوية، وعلى بعضها ملاحظات؛ ذلك لأن الرجل اكتفى بعزو الحديث إلى من أخرجه، أو بعدم النسبة أحياناً، اعتماداً على شيوع الحديث، وهذا أمرٌ درج عليه دعاة كبارٌ كثيرون. . . وإن كنا لا ندافع عنه ولا نفضله!!.

ومعروف أن كتابه **(فقه السيرة)** من أفضل ما كتب في السيرة النبوية في العصر الحديث، وإن تضمن بعض الأحاديث التي ردَّها الشيخ ناصر الدين الألباني، وناقشه الشيخ الغزالي في أسباب قبوله لها، مع تقديره الكامل لأهل الحديث، ولفن الحديث، وإيمانه بأنَّ علم الحديث من أعظم العلوم التي تَفَرَّدَ بها الإسلام، ورجاله أيضاً من أعظم الرجال بل هم نعمة إلٰهية انفرد بها هذا الدين وحده. وليس في الملل الأخرى أهل جرح وتعديل وسند كما هم في الأمة الإسلامية.

وصلة الشيخ الغزالي برسول الله ﷺ إمامِ الدعوة، وإمامِ المتَّقين، وخاتم الأنبياء. . . صلة طاهرة نبيلة، تصل إلى درجة الهيام والحب الأقوى من كل جوانب الحبّ في الحياة، وقد تجلَّى هذا في كل كتاباته، ولا سيّما في كتابه **(فقه السيرة)** الذي يَرْشَح بالحبِّ في كل صفحة من صفحاته لرسول الله ﷺ، ثم كتابه

(**فنّ الذكر والدعاء**) الذي يتتبع فيه الشيخ الغزالي الصلة النفسية والوجدانية التي تمثلت في أدعية الرسول عليه الصلاة والسلام . . . والتي كان رسولنا العظيم يلجأ إليها في وقوفه بين يدي الله . . . ابتهالاً وتضرعاً ونصرةً وحباً لله . . . وغيرةً على أمة الإسلام ! ! .

وفي كل كتبه كانت السنَّة النبوية ، وكانت شخصية الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ سابقةً لا مسبوقةً ، تتألَّقُ بها كلُّ الصفحات ، ملتصقة بكتاب الله ، فمحمد ﷺ فيما ورد عنه ، وثبتت نسبته إليه ، لا ينطق عن الهوى .

لكن يبقى ، أن لكتاب فقه السيرة ـ كما ألمعنا ـ منزلة خاصة ، وذلك في دلالته أبلغ دلالة على عمق الصلة بين الشيخ الغزالي ، وصاحب السنَّة ﷺ . بل إنّ الغزالي في مقدمته للكتاب ليعلنُ هذا الحب للرسول ﷺ ، رافضاً تحييد الدراسة التاريخية إذا كانت في ظلال شخصية نبيّ عظيم كمحمد ﷺ تمتد أنواره إلى جميع من يقترب من شخصيته بقلب سليم وعقل نظيف . . . إنّ سيرته مصدر الأسوة الحسنة ، ومنبع الشريعة ، وذلك دون حيف أو خلط ؛ لأن في الحيف والخلط إساءة بالغة لسيرة رجل هذا شأنُه قدوةً وتشريعاً .

فهو حبٌّ وعدلٌ وموضوعيةٌ ، وليس حباً قائماً على التحيز والتزييف .

* * *

وفي (**فقه السيرة**) نفسه ، يجلِّي الشيخ مكانةَ السنَّة ، ويبين منزلة السنةِ من القرآن فيقول :

القرآن هو قانون الإسلام ، والسنَّة هي تطبيقه ، والمسلم مكلَّف باحترام هذا التطبيق ، تكليفه باحترام القانون نفسه ، وقد أعطى الله نبيَّه حق الاتباع فيما يأمر به وينهى عنه ، لأنه ـ في ذلك ـ لا يصدر عن نفسه ، بل عن توجيه ربه ، فطاعتُه هي طاعةُ الله ، وليست خضوعاً أعمى لواحد من النَّاس ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء : ٨٠] .

ومن ثَمَّ كانت سـنّة محمد ـ عليه الصلاة والسـلام ـ مصدراً لشريعته مع الكتاب الذي شـرَّفه الله به، وجمهورُ المسلمين على هذا الفهم، إلا أن السنن المأثورة عرض لها ما يوجبُ اليقظة في تلقيها، فليسَ كل ما ينسب إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ سنةً تقبل، ولا كلُّ ما صحت نسبته صح فهمه، أو وضع موضعه.

والمسلمون لم يُؤْذَوا من الأحاديث الموضوعة قدر ما أُذوا من الأحاديث التي أسيء فهمُها، واضطربت أوضاعها.

وفي كتابه (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين)[1]، يقول الشيخ الغزالي: تواجه السنَّة النبوية هجوماً شديداً في هذه الأيام، وهو هجوم خال من العلم ومن الإنصاف، وقد تألفت بعضُ جماعاتٍ شاذةٍ تدّعي الاكتفاء بالقرآن وحده.

ولو تمّ لهذه الجماعات ما تريد، لأضاعت القرآن والسنَّة جميعاً، فإن القضاء على السنَّة ذريعةٌ للقضاء على الدين كله. وإن محاربة السنَّة لو قامت على أسس علمية لوجب ألا يدرس التاريخ في بلدٍ ما.

لماذا يقبل التاريخ على أنه علم وتهتم كل أمة به، مع أنّ طرق الإثبات فيه مساوية أو أقل من طرق الإثبات في الحديث النبوي؟ وأمر آخر نحبّ أن نثيره: لماذا تدرس سِيَر العظماء وكلماتهم، وتعرض للتأسي والإعجاب، ويحرَمُ من ذلك الحق رسل الله، وفي صدارتهم سيد أولئك الرسل مروءة وشرفاً، وبياناً وأدباً وجهاداً، وإخلاصاً؟.

وفي كتابه (**ليس من الإسلام**) يقول:

إن الرسول ﷺ يبلّغ عن الله، ويوضِّح مرادَه، ويكمّل الأحكام في الصور الجزئية الكثيرة التي ليس من شأن الدستور العام أن يتعرَّض لها.

---

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص٢٩، ط٣، دار القلم بدمشق، ١٩٩٨م.

فالقرآن مثلاً عرض للبيع ـ وهو أشيع المعاملات ـ فذكر من أحكامه ما لا يتجاوز أصابع اليد عدّاً.

أما السنَّة ففيها بضع مئات من الأحاديث التي تُفَصِّل وتُشَعِّب ـ وللسنّة ـ عدا هذا النطاق التشريعي ـ ميدان أوسع، وينبغي أن نطيل التأمل فيه، هَبْ هيئةً ما طلعت على الناس بمنهاج مبين في كتاب محدود، وأرادت أن تكافِحَ لتعميمه، وسياسة المجتمع به، ماذا تفعل؟؟.

إنها قد تُصْدِرُ صحيفةً، لتكون لسان حالها، وتكرّس فيها جهوداً كبيرة لنشر آرائها واجتذاب الجمهور إليها.

هذا اللسان الناطق باسم الهيئة، والمعبِّر الرسمي عن وجهة نظرها، له مكانته التي لا ريب فيها.

وما يذيعه بين الحين والحين تؤخذ الهيئة به، ويُعَدُّ بياناً دقيقاً عن موقفها.

ووظيفة الصحيفة الرسمية لهيئة ما، أنها تصور حكمها على الحوادث المتجددة، وتنتهز المناسباتِ الحكيمة لتزكية برامجها، والإشادة بما حوت من إصلاح.

ولا موضع البتة بأن هناك تعارضاً أو تفاوتاً بين منهاج الهيئة، وما تنشره صحيفتها الرسمية.

ذلك ـ على ضرب من التجوُّز ـ عمل السنّة مع الكتاب.

ولقد ظلّ رسول الله ﷺ يتحدث ثلاثة وعشرين عاماً، ويسوس الأمة بسيرته فيها، بروزه على سواء للأصدقاء والخصوم، وعمله الدائب لهداية الناس لا يخفى منه شيء.

وليس المهمّ أن نعرف ما حدّث به وحسب، ولكنّ المهم أن نعرفَ كيف ومتى، ومن حدّث؟.

وإن معرفة هذه الظروف تعين إعانةً حاسمةً على فقه السنَّة فقهاً صحيحاً.

فليس الأمر بالنسبة للتعامل مع السنَّة مجردَ اعتمادٍ على حديث واحد في ظروف معينة، بل يجب أن يُضَمَّ الحديثُ إلى أحاديث أخرى، ويجبُ أن يُعْرَفَ المناخُ الذي قيل فيه، وأن يُرْبط بالقرآن، لأنه يستحيل التعارض بين السنَّة والقرآن، فضلاً عن ضرورة ربط الأحاديث بالمقاصد الشرعية المتفق عليها.

وهذا ما كان يسعى إليه الشيخ الغزالي عندما رفع شعاره المشهور:

ـ كما أنه لا فقه بغير حديث، فلا حديث بغير فقه.

قضية السنَّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث.

ألف الشيخ الغزالي كتاباً تحت عنوان: **(السنَّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث)**، تدور قضيتُه حول فقه السنَّة لدى أهل الحديث، وفقه السنَّة لدى أهل الفقه؛ حيث شعر الشيخ الغزالي بأنَّ فقه هؤلاء يختلف عن فقه هؤلاء للسنَّة، ورأى أنَّ الصحوة الإسلامية وجمهورَ الأمة يدفعون ثمن هذا الخلاف.

ويذكر الشيخ أنَّ من بواعثه على تأليف هذا الكتاب أنه ضاق ذرعاً بأناس قليلي الفقه بالقرآن، كثيري النظر في الأحاديث، يصدرون الأحكام، ويرسلون الفتاوى، فيزيدون الأمة بلبلة وحيرة، فانبرى لهذا يحذِّرُ الأمةَ من أقوام بصرُهم بالإسلام كليلٌ، وحديثُهم عن الإسلام جريءٌ، واعتمادُهم كلُّه على مرويات لا يعرفون مكانها من الكيان الإسلامي المستوعب لشؤون الحياة[1].

وليحلّ الشيخ الغزالي المشكلة بين أهل الفقه وأهل الحديث في تعاملهم مع السنَّة، دعا إلى أن يعود الطرفان إلى دورهما السابق في تاريخنا أيام عصور الازدهار؛ فقد كان الفقهاء على امتداد تاريخنا العلمي هم القادة الموثوقين

---

(١) السنَّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، الطبعة الرابعة ١٩٨م، دار الشروق ـ مصر، ص٢٢.

للأمة، الذين أسلمت لهم زمامها عن رضا وطمأنينة، وقنع أهل الحديث بتقديم ما يتناقلون من آثـار، كما تقدم مـواد البناء للمهندس الذي يبني الدار، ويرفع الشرفات.

أما الفقهاء الحقيقيون المجتهدون فهم البُناة الذين يجمعون النصوص ويضمون إليها الأصول والفقه والاجتهاد!!.

فالـواقع أنَّ كِلا الفريقينِ يحتاجُ إلى الآخر، فلا فقه بلا سـنّة، ولا سـنّة بلا فقه، وعظمةُ الإسلام تتم بهذا التعامل. والمحنة تقع في اغترار أحدهما بما عنده، وتزداد مع الإصرار وضعف البصيرة[1].

وينطلق الشيخ الغزالي في حلِّه لمشكلة ما طرأ من خلافات بين بعض أهل الفقه وبعض أهل الحديث في فقه السنَّة النبوية ـ من إيمان كامل بأن توثيق الأخبار لون من إحقاق الحق وإبطال الباطل، وبأنَّ هناك طريقاً واحداً لإرضاء الله سبحانه وتعالى، هو اتباع محمد ﷺ، واقتفاء آثاره، والسير على سنته، والإيمان بأنّ الكذب على الرسول ﷺ طريق الخلود في النار، لأنه تزوير للدين، وافتراء على الله.

كما ينطلق الشـيخ الغزالي من الشـروط التي وضعها علماء السـنَّة لقبول الأحاديث النبويـة، وهي خمسـة شـروط[2]: ثلاثة منها في السـند، واثنان في المتن.

١ ـ فـلا بد في السـند من راوٍ واعٍ يضبط ما يسـمع، ويحكيه بعدئـذٍ طبق الأصل.

٢ ـ ومع هذا الوعي الذكي لا بد من خلُقٍ متين، وضميرٍ يتّقي اللهَ، ويرفضُ أي تحريفٍ.

---

(١) محمد الغزالي، السنَّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص٢٤، ٢٥، ط٤، دار الشروق ـ مصر.

(٢) السنَّة النبوية، ص١٤، ١٥.

٣ ـ وهاتان الصفتـان يجب أن يطردا في سلسلة الرواة، فإذا اختلتا في راوٍ أو اضطربت إحداهما، فإنَّ الحديثَ يسقط عن درجة الصحة.

وننظر بعد السند المقبول إلى المتن الذي جاء به، أي إلى نصِّ الحديث نفسه...

٤ ـ فيجب ألا يكون شاذاً.

٥ ـ وألا تكونَ به علةٌ قادحةٌ.

والشذوذ أن يخالِفَ الراوي الثقةُ من هو أوثق منه... والعلة القادحة عيبٌ يبصره المحققون في الحديث، فيردونه به.

وهذه الشروط ضمانٌ كافٍ لدقة النقل، وقبول الآثار، بل إنه لا يعرف في تاريخ الثقافة الإنسانية نظيرٌ لهذا التأصيل والتوثيق. والمهم هو إحسان التطبيق!.

فالشيخ الغزالي ـ كما نرى ـ ينطلق من قواعد السنَّة، ويبرز حرصَه عليها، ويكفِّر منكرها، أو رافض الأخذ عن عمد وقصد بأي حديث منها، وإنما يدور الخلاف حول أهلية المحدِّث للفتوى، فالمحدث مهما بلغ نبوغه في علم الحديث يحتاج إلى أدوات الفقيه لكي يكون مفتياً، أما نبوغه في علم الحديث فقط، فهو لا يؤهله لذلك.

وإنما وقعت المحنة في الأمة حين انفصل الحديث عن الفقه، وانبرى بعض الشباب الذين يحفظون بعض الأحاديث يفتون المسلمين من خلال هذه الأحاديث التي لم يفقهوها، والتي بتروها عن سياقها، ولم يقرنوها بالأحاديث الأخرى في موضعها، ولم يأخذوا بشروط الفتوى، وظنوا أن كل حديث للرسول ﷺ يقوم بنفسه دون أن يرتبط بفقه القرآن، وبفقه السياق والواقع، وبفقه الأصول... فكانت المحنة التي مزقت فكر الأمة ومكنت منها أعداءها.

ولمواجهة هذه المحنة وحل هذه المشكلة بين أهل الفقه وأهل الحديث في

فقه السنَّة كتب الشيخ الغزالي كتابه (**السنَّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث**) مجتهداً ـ أصاب أم أخطأ ـ فهو ليس معصوماً، ولم يزعم لنفسه العصمة؛ بل كان يرحب بمن يحاورونه، ويردون عليه بأدب العلماء وفقههم.

ويشاء الله أن ينال هذا الكتاب ـ كما يقول الشيخ الغزالي نفسه ـ أكثر من حقه، فقد نال شهرةً واسعةً ـ بفضل خصومه ومخالفيه ـ وهي شهرة لم يأخذها كتاب آخر من كتب الشيخ الغزالي، مع أنَّ له عشرات الكتب التي تفوقه، لكن الكتب حظوظ!!.

ونحن نزعم أن أكثر ما في هذا الكتاب لا جديدَ فيه إلا أسلوب العرض الخاص بالشيخ الغزالي، وفي مزجه بين النقل والعقل مزجاً يتفرد به، وهو مما أفاء الله عليه.

وسائر القضايا الفقهية التي أوردها الشيخ موجودة ومعروفة في فقهنا الإسلامي بمذاهبه المختلفة، وكان لها رصيد كبير في كتب الفقه، كما أن فقهاء كثيرين دافعوا عنها، وعرّفوا بها في القديم والحديث على حد سواء، ولم يكن الشيخ الغزالي بِدْعاً فيها.

ولكي نعيد الأمور إلى طبيعتها الفقهية الموضوعية، فإننا سنذكر ـ بإيجاز شديد ـ تلك القضايا التي أوردها الشيخ الغزالي، مستخدمين الأسلوب التقريري؛ حيث يتبين القارئ أنها مجرَّد (فقه) يقف فيه الحديث إلى جانب الحديث، ويعود فيه الحديث (الظرفي الجزئي) إلى (الآية القرآنية) ذات الديمومة والشمول، وتتواكب الآيات القرآنية القطعية الثبوت والقطعية الدلالة أو (الظنية الدلالة) مع حديث الآحاد الظني الثبوت (القطعي الدلالة) أو (الظني الدلالة)... فيحاكم حديث الآحاد إلى كتاب الله، لأن ما ثبتَ قطعاً وتواتراً آصَلَ وأولى مما ثبت أحاداً وظناً.

كما يعرض حديث الآحاد ـ كذلك ـ على الحديث المتواتر، أو على

حديث الآحاد الأسلم منه، لوردوه من طرق أوثق، أو لوجود ما يعضده من أحاديث الآحاد الأخرى.

وما زاد الشيخ الغزالي في منهج الأسلاف الفقهي شيئاً، إلا أنه أحيا سنة اجتهادية حميدة يمكن أن تصبح شعاراً، وهي أنه (لا فقه بغير حديث... وأيضاً... لا حديث بغير فقه)!!.

- ولو أننا نظرنا في فقه الأحناف لوجدنا فيه الكثير مما أورده الشيخ الغزالي!!.

وناهيك بأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم وكتابه (المحلى)، وما يزخر به من آراء فقهية نهل منها الدكتور محمد فتحي عثمان في كتابه (آراء من تراث الفكر الإسلامي)[1].

وقد أورد فيه الدكتور فتحي عثمان كثيراً من القضايا التي عرض لها كتاب أستاذنا الشيخ الغزالي... كما أن (فقه الدكتور يوسف القرضاوي) الموجود في كتبه وفتاواه، ولا سيما كتابه المعروف (الحلال والحرام في الإسلام) حافل بكثير من هذه الآراء!!.

ومع ذلك فالشيخ الغزالي مجتهدٌ من المجتهدين، ومن حق أي مسلم أن يميل إلى رأيه أو يأخذ الأحوط والأسلم!!.

- إن رأي الشيخ الغزالي في قضية (النقاب) و(الحجاب) - وجعله الحجاب هو الأصل - لا نعتقد أن الشيخ محمد الغزالي قد ناقشه ووقف عنده وبسط فيه القول، مثلما وقف الشيخ ناصر الدين الألباني - مثلاً - في كتابه الذي يحمل عنوان (حجاب المرأة المسلمة)... وهو رأي فقهي موجود وشائع في كثير من بلاد الإسلام، ولا يهمنا إن كان راجحاً أو مرجوحاً، فلسنا هنا في مجال مناقشته... لكنه موجود على كل حال... وهذا ما يهمنا!!.

---

(١) طبع الدار الكويتية للنشر، ١٩٦٩م.

ـ وما ذهب إليه الشيخ الغزالي حول الحجاب وجواز كشف الوجه والكفين عند أمن الفتنة ورد ـ كما هو معروف ـ في تراثنا الفقهي أيضاً؛ فقد قال به ابن عباس، والأوزاعي، وسعيد بن جبير، وعطاء، والقرطبي، والطبري، والزمخشري، والرازي.

ـ وقد قال به فقهاء كثيرون معاصرون، منهم المفتي الأسبق في مصر الشيخ حسنين مخلوف، فهو يرى أن الوجه والكفين ليسا بعورة، شرط أن يكونا طبيعيين غير مطليين بالزينة!! وهذا نفسه رأي معاصرين كثيرين كالشيخ عبد العزيز الخياط، والدكتور يوسف القرضاوي، والشيخ عبد الله العقيل، وغيرهم!!.

وأما قضية (دية المرأة المسلمة ومساواتها بدية الرجل) فقد كتب فيها قبل الشيخ الغزالي كثيرون... وقد أخرج فيها الأستاذ (عزّ الدين بليق ـ لبنان) رسالة صغيرة انتهى فيها إلى رأي الشيخ الغزالي نفسه... وقد ذهبنا في كتابنا عن (الحدود في الشريعة الإسلامية) الذي أصدرته الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، إلى الرأي نفسه الذي ذهب إليه الأستاذ عز الدين بليق، وأستاذنا الشيخ الغزالي... ومع أن هذا الرأي نشر في جريدة الشرق الأوسط ثم في كتاب الحدود الذي صدر عن جريدة الشرق الأوسط، فإنه (لم تقم ثورة) ولم ينظر الناس للأمر إلا على أنه رأي من الرأي، وفقه من الفقه... فكلها قضايا غير أصولية، وموضع اجتهاد!.

وقضية إباحة (الغناء والموسيقى) ـ بشروط وضمانات ـ تكلم فيها كثيرون قدماء ومحدثون... وعلى رأسهم ابن حزم الأندلسي، وأبو الفضل المقدسي، وأبو حامد الغزالي.

بل يقال: إن الشافعي وأحمد ومالكاً في بعض آرائهم يميلون إلى الكراهة، وتحريم الإكثار فقط، ومثلهم ابن حجر العسقلاني والماوردي، وابن قدامة الحنبلي وابن الصباغ.

وفي عصرنا يميل إلى رأي الشيخ الغزالي فقهاء من مصر والشام والعراق

وكثير من بلاد العالم الإسلامي الأخرى.

وللمحقق الدكتور عبد الفتاح الحلو ـ رحمه الله ـ بحث حول الغناء، ينتهي فيه إلى رأي الشيخ الغزالي، كما أن الدكتور يوسف القرضاوي يتطابق رأيه مع رأي الشيخ الغزالي.

بيد أن الجميع ـ وهذه ملاحظة أساسية ـ يتفقون على أن مصطلح (الغناء) المعروف في تراثنا، هو غير الغناء المشهور في عصرنا، ذلك الذي ارتبط بكثير من التحلل والإثم، كما ارتبط بمخططات لهدم الأمة، كما أن أقطابه ـ إلا من عصم الله، وهم نسبة قليلة... ليسوا في مستوى الابتعاد عن الشبهات؛ بل انغمس أكثرهم وأكثرهن في الإفساد المشين.

فحتى لو كان الغناء حلالاً ـ بشروط كثيرة ـ لذاته، فقد أصبح في عصرنا ـ في أكثر الأحايين ـ حراماً لغيره!!.

ـ فليس في رأي الشيخ الغزالي جديد جدةً خارجةً عن فقه الأمة، وإنما هو (رأي) موجود ومعروف، يقبله من يقبله، ويرفضه من يرفضه... أو يقبله بعضهم (اجتهاداً فقهياً) ويرفضونه ـ في أكثر الأحايين ـ حيطة وورعاً... وأعتقد أن الشيخ الغزالي نفسه من هؤلاء!!.

أما رأي الشيخ الغزالي في جواز عمل المرأة... فهو رأي مقبول من الأمة كلها الآن بالشروط والضمانات التي يؤمِنُ بها الشيخ محمد الغزالي نفسه... والتي أشار إليها في كتابه!!.

وأما رأيه في عدم الحظر على المرأة في تولّي أيِّ منصب يناسب طبيعتها، باستثناء الخلافة العظمى... فهو رأيٌ موجود، قال به الأحناف، ودافع عنه ـ بكل قوة ـ الإمام ابنُ حزم الأندلسي، الذي ذكر في (المحلّى: ١٠/ ٦٣١) مسألة رقم ١٨٠٤ ما نصّه: «وجائز أن تلي المرأةُ الحكمَ، وهو قول أبي حنيفة... وقد روي عن عمر أنه ولّى الشفاء ـ امرأة من قومه ـ السوق.

فإن قيل: قد قال رسول الله ﷺ: «لنْ يُفْلِحَ قومٌ أسندوا أمرَهم إلى امرأةٍ».

قلنا: إنما قال ذلك رسول الله ﷺ في الأمر العام الذي هو الخلافة. برهان ذلك: قولُه عليه الصلاة والسلام: «المرأةُ راعيةٌ على مالِ زوجِها، وهي المسؤولةُ عن رعيتها».

وقد أجازَ المالكية أن تكونَ وصيةً ووكيلةً، ولم يأتِ نصٌّ في منعها أن تلي بعضَ الأمور.

أما تولِّي المرأة القضاء، فقد أجازه ابن حزم على الإطلاق أيضاً، ووافقه فيه بعض (الأئمة) (المحلّى: ١٠/ ٦٣٢).

ومساواة المرأة بالرجل ـ في حدود تخصُّصِها الذي ذكره الشيخ الغزالي ـ ينضحُ بـه فكرُ ابن حزم في مـواضعَ كثيرة، فالجهادُ على المرأةِ ندبٌ... لكن لا نهيَ عنه، وجهادُ الحجِّ والنفار للتفقه في الدين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجبٌ عليها، كوجوبه على الرجال، وفُرِضَ عليها ـ أيضاً إلى جانب هذا الفقه العام ـ التفقهُ في كلِّ ما يخصُّها، كما أنَّ ذلك فرضٌ على الرجال... ولو تفقهت المرأة في علوم الديانة للزمنا قبول نذراتها وقد كان ذلك. فهؤلاء أزواج النبي ﷺ قد نقل عنهن أحكام الدين، وقامت الحجةُ بنقلهنَّ، ولا خلافَ بين أصحابنا وجميعِ نحلتنا في ذلك (الإحكام في أصول الأحكام: ٣/ ٣٢٥).

وما يقول به الشيخ الغزالي في رفض ظاهرة (العفاريت) المتخصِّصة في ركوب بعض المسلمين المخبولين هو رأي جمهور المسلمين!!.

ـ وما يراه الشيخ الغزالي في (الفقر وأحاديثه) من أنَّ هذه الأحاديث وردت لكي تقدِّمَ منهجاً في تربية المسـلم على (الاسـتعلاء) و(الزهد) ـ لا على الفقر والعجز والتكاسل ـ هو رأي جمهور المسلمين!!.

... فقد كان عبد الله بن المبارك أزهدَ عصره، وواحداً من مشاهير أغنياءِ عصره... وهذا الرأي هو أيضاً رأي جمهورِ الأمة، والشيخُ الغزالي يتناغَمُ فيه

مع الفقه السديد بالإسلام!!.

وإذا كان بعضُ الصوفية يبرّرون فقرَهم وكسلَهم بهذه الأحاديث، فآراؤهم حجةٌ عليهم، وليست حجةً على التصور الإسلامي الصحيح!!.

* * *

وهكذا نرى أن ما جاء به الشيخ الغزالي في هذا الكتاب ليس بِدْعاً وليس ابتكاراً، وكل قيمته أنَّ الشيخ الغزالي جمعه إلى بعضه في شحنة قوية، أضفى عليها من ذاته، ومن ثقافته، ومن تجربته ومعاناته، ومن تحديات العصر، الذي لا شك أنَّه عصرٌ يحتاج إلى جرأة الشيخ الغزالي، وقدرته على الاجتهاد. أصابَ أم أخطأ، فكلُّ الأئمةِ لهم بعضُ الأخطاء، وكل مخلوقٍ يؤخَذُ من كلامه ويترك، إلا المعصوم محمد ﷺ (خاتم الأنبياء، وخلاصتهم).

مع أنّ أحداً من المنصفين، الذين يعرفون الشيخ الغزالي، لا يمكن أن يشّكوا في أهدافه النبيلة، وفي إخلاصه الكبير للإسلام، وإنما أرادَ الدفاع عن السنَّة في وجه الذين يعبدون العقل (مع محدوديته)، ويفضلونه على الوحي (مع لا محدوديته المطلقة)، والشيخ الغزالي نفسُه هو الذي يقول: «إنَّ اتهامَ حديثٍ ما بالبطلانِ، مع وجود سندٍ صحيحٍ له، لا يجوزُ أن يدورَ مع الهوى، بل ينبغي أن يخضعَ لقواعِدَ فنيةٍ محترمةٍ، وهذه القواعدُ الفنِّيةُ المحترمةُ، لا يستطيعُ استعمالَها أصحابُ الأذهان الكليلة، التي قد تردُّ نهارَها ليلاً، وقد تفصلها ـ من حيث لا تدري ـ عن القرآن، مع أنَّ السنةَ الصحيحةَ والقرآن لا ينفصلان، ويكمِّلُ بعضُهما بعضاً، فقد أمرنا الله بمطلق الصلاة، لكنَّ السنةَ القوليةَ والعمليةَ هي التي حددت لنا كيفية الصلاة، وشروطَ صحتها، وكل تفصيلاتها، انطلاقاً من حديث النبي عليه الصلاة والسلام: «صلّوا كما رأيتموني أصلي»».

وكان ربطُ السنَّة بالقرآن من الأسباب المحركة للشيخ الغزالي، بعد أن وجدَ بعض أنصافِ المتعلمين يتجرؤون على الفتوى، اعتماداً على حديثٍ وصل

إليهم، فقطعوه عن بيئته، وعن الأحاديث المتممة له، وعن القرآن الذي يعدّ المصدر الأساسي الذي ترجع إليه السنَّة، كما يرجع القانون إلى الدستور.

* * *

الشيخ الغزالي

والدعوة إلى الإسلام

ليس من المبالغة أن نقول: إنّ الشيخ الغزالي واحدٌ من أعظم الدعاة إلى الإسلام في العصر الحديث، لدرجة أن بعضَ الذين اختلفوا مع الشيخ الغزالي في بعض القضايا الفقهية أو الحديثية كانوا يروّجون أن الشيخ الغزالي داعيةً أكثرَ منه فقيهاً أو محدثاً، وهم يتدَرّجون من ذلك إلى التقليل من شأن الآراء الاجتهادية للشيخ الغزالي، وبعضُهم كان يتمنى لو أن الشيخ الغزالي جرَّد نفسه للدعوة، اعتماداً على مواهبه الفذّة، وترك الفقه لرجاله، والحديث لرجاله!!.

وقد كنتُ أسمعُ هذا الكلام فيحزنني؛ لأني أستشعر منه انتقاصاً من قيمة الشيخ الغزالي من ناحية، وفقهاً مغلوطاً لمعنى الدعوة والداعية من جانب آخر؛ فكأنّ هؤلاء يرون الداعية واعظاً يتحدث عن الموت والزهد في الدنيا، ويهدهد عواطف الناس ومشاعرهم، حتى ولو اقتصر على ما يسمّى بالترغيب والترهيب، بدون فقه رشيد، ووعي سديد بعلم الحديث... إنّ هذا الكلامَ قد يكون مقبولاً بالنسبة لأي دين آخر، لكنّه بالنسبة للإسلام، وهو الدين الذي يضع تشريعاتٍ للدنيا، ويصوغُ حياةَ الناس الفردية والاجتماعية، لا يمكن أن يكون صحيحاً، فديننا منضبط بقيود القرآن والسنَّة، وهو قانون موضوع في قالب رباني، وصياغة للدنيا في إطار روحي وأخلاقي.

فقد يجوز أن يؤلِّف الشيخ الغزالي كتاباً في علم الحديث، كما يؤلِّف المحدّثون، وهو لم يفعل ذلك، وقد يجوز أن يؤلف الشيخ الغزالي كتاباً في الفقه كما يؤلف الفقهاء، وهو لم يفعل ذلك، لكن ذلك لا يعني أن تقفَ دعوتُه بعيدةً عن الحديث وعن الفقه، لا تستمدُّ منهما ضوابطها وقوانينها على النحو الذي

ألمعنا إليه، كما أنَّ هذا لا يعني أن يكونَ الشيخ الغزالي محروماً من الرؤى الاجتهادية العامة، التي لا تتدخل في التفصيلات الدقيقة، وإنما تتكلَّم في البناء الإسلامي كله، وتدلي بدلوها، في تطور الحركة الفكرية والإصلاحية، ولو أننا طبقنا هذا المعيار، لما جاز للشيخ محمد أبي زهرة أن يكتبَ في كلِّ المذاهب الإسلامية، ولما جاز للشهيد سيد قطب، أن يكتب في ظلال القرآن، ولما جاز لكثير من المفكرين الموسوعيّين القدامى والمحدَثين أن يكتبوا إلا في التخصص الدقيق الذي أخذوا فيه شهاداتهم، أو تلقوا فيه دراساتهم.

وكما ذكرنا، فإنَّ الشيخَ الغزالي تكلَّم في الأطر العامة، والقضايا الاجتهادية والإصلاحية التي تهم كبار المصلحين، والتي تمثِّلُ ما يمكن أن نسميه السياسة العامة، التي تستطيع معالجة الأوضاع، ومواجهة المشكلات الطارئة.

فمثل الداعية الكبير الشيخ الغزالي مثل طبيب العظام، الذي قد يمنع استعمال بعض الأدوية المطلوبة لمرضٍ جزئي طارئ أو عارض، لأنه يعلم أن هذه الأدوية قد تؤثر في سلامة الجسم كله، حتى ولو حفظ الأطباء الصغار، في الكتب التي درسوها، أن المرض الفلاني علاجُه هو الدواء الفلاني، وفي فكر أسلافنا الكبار ألوانٌ من هذا الفقه المستنبَطِ من المقاصد الشرعية والقواعد الكلية، وأصول المصالح العامة.

فالشيخ الغزالي - نعم - داعية، لكنّه داعية تقومُ دعوتُه على القرآن والسنَّة والفقه، كما تقوم على فقه عام بالإسلام، وفقه عام بالعصر ومقتضياته، وبمشكلات المسلمين والحلول الناجعة لها.

ونحن لا ننكر أنَّ الشيخ الغزالي داعية أولاً، وثانياً، لكنه مع ذلك تخرج في الأزهر، واشتغل بالدعوة والفتوى، ولم ينقطع عن المساجد، ولا عن الناس، ولا عن التعامل مع المثقفين ومع سائر الطبقات. وقد كانت بيئتُه الفكريةُ بيئة حديثٍ وفقهٍ ودعوةٍ معاً، وكان الشيخ سيد سابق من أقرب الناس إليه، وهو الفقيه الذي لا يشقُّ له غبار.

* * *

لقد قدم الشيخ الغزالي دراسات كثيرة مباشرة في الدعوة، ومنها: (**في موكب الدعوة**)، و(**دراسات في الدعوة والدعاة**)، و(**الدعوة الإسلامية تستقبل القرن الخامس عشر**)، و(**هموم داعية**)، و(**مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف نفكر فيه**)، وهو كتاب في الدعوة إلى الله خارج نطاق العالم الإسلامي، وقد كتبه الشيخ على أساس أن فقه الدعوة يقتضي التعرُّفَ على البيئة، والتدرُّجَ في تقديم الحقائق، وترك الخلافات، والأخذ بالتيسير . . . بدون ذلك كله، وبدون فقه كاف بالإسلام ومصادره . . . لا يمكن أن ينجح الداعية في أداء رسالته، فهذه المعارف مرتكزات أساس، ومؤهلات ضرورية، للداعية المسلم، الذي ابتعثه الله ليخرج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام.

* * *

وللشيخ الغزالي مواقفه في حقل الدعوة بوزارة الأوقاف بمصر، إذ كوّن إطارات دعوية طيّبة، وعلى مسؤوليته الشخصية أعطى الدعاةَ الفرصةَ لتصحيح الأوضاع . . . ودفع ثمنَ ذلك منعه من التدرُّجِ الوظيفي، ومن تقلّد المناصب الكبيرة في الوزارة.

وعندما توسّط بعضُ الطيّبين في عهد وزير الأوقاف الدكتور (زكريّا البرّي)، وعيّن الشيخ وكيلاً أول لوزارة الأوقاف، وطلب منه ثمن ذلك مهادنة الفساد، رفضَ تقلّد المنصب، وقدّم استقالته ـ ووقف الشيخ مع المخلصين لحماية الأزهر من التردّي، وكان يحاضِرُ فيه شبه محتسب، ووضع يده في يد الشيخ عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر) ـ رحمه الله وغفر له ـ فتعاونا على إنقاذ الأزهر، وعلى وضع صياغـةٍ لتطبيقِ الشـريعة. وفقَ المقاصد الأساسـية، التي تجمعُ الفـروعَ والجزئيات.

* * *

وفي كتابه (**جهاد الدعوة**) ردّ الشيخ الغزالي على الذين يقولون: إنَّ آيات

الدعوة بالحسنى والحكمة، منسوخةٌ بآيات السيف، فقد ذكر الشيخ أنَّ قولَهم لا رصيدَ لـه مِنَ الصحـة، فالأصلُ في الدعـوة والفكرُ والإقنـاعُ، وليـس القهر والإكراه. وآياتُ القرآن كثيرة في هذا: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وأيضاً: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ [الكهف: ٢٩]، فضلاً عن أنّ الشيخ الغزالي لا يؤمن بوجود نسخ في القرآن[١].

ـ وقد تحدَّثَ الشيخ الغزالي عن شروط الداعية، وعن الدعاة الفتّانين، من ضعافِ الثقافة، كما تحدّثَ الشيخُ الغزاليُّ عن مرتكزات الفقه الدعوي، وأعظمها القرآن وتليه السنَّة النبوية، ثم التاريخ الإنساني العام كرصيدٍ يغترفُ منه الداعية، ثم الثقافة الإنسـانية العامة، والثقافـة الدينية الخاصـة، ثم المعايشـة للواقع المحلي، والمعرفة الرشيدة بالواقعين الإسلامي والعالمي.

ويرى الشيخ الغزالي أنَّ الداعيةَ بدون عقلٍ علميٍّ، وبدون وعي بمقارنة الأديان، ومعرفة ما عند الآخرين يهوداً كانوا أو نصارى أو بوذيّين، وبدون معرفة بالمذاهب المعاصرة، والابتعاد عن الصراع حول هيئات ونوافل، وتقديم حقائق الإسلام تقديماً عقلياً يقبله إنسان الغرب، أو حسب تعبير الشيخ الغزالي: «غربلة المعارف قبل تقديمها للناس»، والعودة إلى منابع الثقافة الإسلامية الأصيلة... بدون هذا كله لا يمكن أن ينجح الداعية في رسالته.

ونحن نرى أن كل كتب الشيخ الغزالي تصبُّ في نهر الدعوة، حتى كتاب **(فن الذكـر والدعاء)**، ففي رأينـا أنه يعدُّ من أهم ما يجب أن يتـزود به الداعية، فلا دعوةَ للإسلام بدون صلة حسنة بالله، وشكر لله وحمد له، والوقوف بين يديه آناء الليل وأطراف النهار.

وقد حرص الشيخ الغزالي على إعطاء الدعوة مكانها الكريم، وحرص في الوقت نفسه على أن تكون وسائل الدعوة شريفةً كالدعوة نفسها، فطبيعةُ ديننا ترفُضُ

---

(١) أوقع عدم التنبه للفرق بين النسخ عند المتقدمين والنسخ عند المتأخرين إلى كثير من اللبس والاضطراب. (الناشر)

أن يتوصل إلى الغاية الكريمة بوسائل رديئة، كما هو الشأنُ عند اليهود ورجال الكنيسة، الذين يستبيحون كلَّ شيء في سبيل أهدافهم التي لا نعتقد أنَّ لها صلة بحقائق الأديان، بل الأمر فيها أقربُ إلى الصراع الدنيوي، الذي يمضي بلا دين ولا خلق.

ولهذا كانت للشيخ وقفات ضد كلِّ المتشددين والجزئيين والحرفيّين، الذين يضيِّعون الحقائق الكبرى.

- ولعل تاريخَ مصر الحديث لم يشهد تجمعاتٍ في المساجد مثلما شهد في تلك الفترات، التي كان يخطُبُ فيها الشيخ الغزالي في مساجد مصر الشهيرة، وأبرزها:

أ- مسجد عمر مكرم (في ميدان التحرير بالقاهرة).

ب- مسجد عمرو بن العاص (أول مساجد مصر في التاريخ الإسلامي).

جـ- مسجد النور بالعباسية، (وهو المسجد الذي أغلق بأوامر سياسية، ثم فتح بعد ذلك).

د - مسجد محمود (بالمهندسين، وهو المسجد الذي يرعاه الدكتور مصطفى محمود، الكاتب المعروف).

هـ- المسجد الجامع بالأزهر (مسجد جامع الأزهر)... وغيرها من المساجد، وقد وردَ أنّ عدد المصلين خلفه في بعضِها كان يزيد على مئة ألف، كما صلّى وراءه في بعض الأعياد أكثر من ربع مليون.

وقد جاب الشيخ الغزالي العالم، حتى أمريكة وأوروبة، داعياً إلى الله، عاملاً على رأب الصدع بين المسلمين، وتوحيد فكرهم وصفوفهم، محيياً لفريضة الأخوة الإسلامية، التي انتشر بها الإسلام أوّل الأمر، ولن ينتشرَ ويسودَ آخر الأمر إلا بها ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

* * *



الجانب الوجداني في الإسلام

وتقويمه عند الغزالي

يؤمن الشيخ الغزالي بأنّ هناك أمرين إن فاتا الإنسانَ المسلم فلن يصلح له دين، وهما: القلب السليم، والعقل السليم.

فقد يكون للصوفية - مثلاً - بعض الحب في الله، والوله به، لكن خروج أكثرهم عن العقل، وسنن الله، يحبط أعمالهم.

وقد يكون لليهود وسدنة الحضارة المادية بعضَ القوة في العقل، لكنَّ الفساد المسيطِرَ على قلوبهم - جعلهم يسيرونَ في طريق سقوط الحضارة، وفي طريق فلسفة (البقاء للأقوى)، (الغاية تبرر الوسيلة). . .

ولكنّ الإسلامَ - بشموله وتوازنه وجمعِه بين النقلِ والعقلِ الصحيحين - يرفضُ هذا المنهجَ المغشوشَ المنحرف. . . فالنظر الإسلاميُّ يرى أنّه عندما يختلُّ الميزانُ، فيضيعُ العقل، أو يضيع القلب، يصبح كلُّ ما نجيء به من تدين مجردَ ورقةٍ ملونةٍ نضعُها على جدار أجرب. . . إنّه لباسٌ نظيف على كيانٍ متسخٍ. فما دامَ القلبُ السليم قد ضاعَ فلا دين، وما دامَ العقلُ السليم قد ضاع فلا دين!!.

وأهميةُ القلب السليم تتضحُ فيما ذكره القرآن الكريم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

وأهمية العقل السليم تتضح فيما قاله أهل جهنم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

و﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

ومن هنا يبدو ضرورياً أنْ نؤكّد على تميُّز المنهج الإسلامي بالجمع الوثيق بين العقل والقلب . . . فلا إسلامَ بلا عقلٍ، ولا إسلامَ بلا قلبٍ، لكنَّ العقلَ والقلبَ كليهما في حاجةٍ إلى موازين ضابطةٍ تحقق تكاملهما وانسجامهما، وتحول دون طغيان أحدهما أو خروجه عن مساره وحجمه ووظيفته!!.

إننا ندركُ أنّ عاطفةَ الحب تصنع الكثير في الدنيا.

انظر إلى رجلٍ يحبُّ المال، فإذا كان تاجراً فإنه يكونُ أسرعُ الناس إلى مزاولة عمله، وضبط إدارته، والسهر عليه، والحرص على استثماره، ويكون باعث حب المال في نفسه سبباً في أن يكون مثل قارون، لأنّه يجتهد في هذا الحب.

وكذلك الأمر بالنسبة لرجل يحب الرئاسة.

فإذا كانت عاطفة الحب تصنع الكثير في مسالك الناس، فلماذا ننام عن حب الله؟ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فنحن في حاجة إلى حبِّ الله - بيقين - وإلى دفع ضريبة هذا الحب، لكنّ هذا (الحب) يجب أن تحكمَه الضوابط العبادية والشرعية، ولا يكون مجرد عاطفةٍ هائجةٍ بعيدةٍ عن الشريعة التي حددها الله طريقاً لحبّه ورضاه ورحمته.

ونحنُ نعلم أنَّ علمَ التصوف يدرسُ أساسَ الحب في الله، وعاطفة الإحسان «أن تعبدَ الله كأنّك تراه، فإنْ لم تكنْ تراه فإنّه يراك»، لكن مستوى الإحسان الذي هو لبّ التصوّف لا يأخذ حقَّه من الدراسةِ والاهتمامِ عند كثيرٍ من الصوفية، بينما يحتشِدُ التصوف بكلامٍ كثير لا أصلَ له في دين الله، وهذا يدفعُ إلى توضيحِ حقيقةِ التصوف. يقول الشيخ الغزالي:

إنَّ التصوفَ نوعان:

تصوّف فلسفي، ومن أبطاله محيي الدين ابن عربي، وابن سبعين، وابن الفارض، والحلاَّج.

وتصوف أخلاقي، أو عبادي: مثل الشاذلية، والقادرية، ومن إليهم، وهؤلاء أناس طيبون، ولكنهم ليسوا على مستوى تصوّفهم، وربما لا يلتزم كثير منهم بحدود الكتاب والسنّة.

أما التصوف الفلسفي ففيه أكاذيب كثيرة.

ويعلق الشيخ الغزالي على بعض مفاسد ابن عربي العقدية قائلاً:

لقد قرأت في باب رقم (٣٣٣) من (الفتوحات المكية) لابن عربي قوله: إن الواحد لا يصدر عنه شيء أصلاً، والاثنان لا يصدر عنهما شيء إلا أن ينضمَّ إليهما ثـالث، فقلت: إن هذا الرجل يخدم بذلك المسيحية، فإذا كان الواحد لا يصدرُ عنه شيء أصلاً، فمن الذي خلق العالم؟ وإذا كان الاثنان لا يصدر عنهما شيءٌ أصلاً فمن الذي ولدك؟ فهذا شيء عجيب.

ـ وقلت لا بد من إحيـاء التصوف، ولكن ليـس بالطريقـة التي يسير بها التصوف الآن، بل عن طريق أناسٍ يجدّدون التصوف بطريقة مختلفة عن الكلام الهزيل المكتوب في الكتب التي بين أيدينا الآن، والإسلامُ بريءٌ منها، ويجب أن تغربَلَ في ضوء القرآن والسنَّة، أو يشاع خروجها عن الإسلام.

إن الشيخ الغزالي لم يقصد أبداً اقتلاعَ جذور الجانب العاطفي في الإسلام المسمى (التصوف) وهضم القلب حقه... ولكنه يريد للإسلام أن يبقى كما أنزله الله في الكتاب والسنَّة، بعيداً عن البدع والشوائب، التي سبّبت للمسلمين كوارثَ في تاريخهم، بسبب انحرافاتٍ كثيرة من الصوفية، الذين كانوا من أسباب تشويه الإسلام، وصرف الناس إلى الإلحاد والعلمانية والانحراف الماديّ!!.

وفي فكر الشيخ الغزالي أنَّ التصوفَ الحق الملتزمَ بالكتاب والسنَّة يمكنُ أن يقتربَ بصاحبه من (مرتبة الإحسان).

وهي المرتبـة التي يسمِّي الغزالي التصوفَ بها أحياناً، فيطلق عليه (علم الإحسان)، وقد يسمِّي التصوف ـ في أحيانٍ أخرى ـ (علم القلوب) أو (الجانب

العاطفي من الإسلام)، وهو يقتدي في إطلاقِ هذه التَّسميات برجلين من أعمدة العلم السلفي هما: ابن تيمية، وابن القيم؛ فلابن تيمية أجزاء في (فتاواه الكبرى) عن علم القلوب، ولابن القيم كتاب (مدارج السالكين شرح منازل السائرين).

والحقُّ أنَّ الجفافَ المسعور السائد الآن في حريق المطامع المادية جاء من أنّ علمَ القلوب هجره المسلمون، وأنَّ الجانبَ العاطفي من الدين أهملَ، وأصبح الدين عند بعض حملة العلم مظاهر وأشكالاً.

ـ فالذي يجبُ على الدعاة إلى الله ـ كما يرى الشيخ الغزالي ـ أنْ يكونَ لهم زادٌ من هذا الجانب الروحي والوجداني والعاطفي في تراثنا الثقافي، وهو محرّرٌ تحريراً حسناً في كتابات الإمامين ابن تيمية وابن القيم وغيرهما.

وقد فشل بعضُ الدعاةِ في عصرنا، لتناوشهم على القضايا التافهة، ولجبنهم عن الانسياح في أرض الله، وهما نتيجتان ترجعان إلى هذا الفراغ القلبي، وللأزمة التي ترجِعُ إلى الهبوط النفسيّ، ولا علاجَ لها إلاّ بتصحيح المسار الوجداني، وهو ما يمكن تسميته (علم القلوب).

وقد يقع أحياناً أن يستهينَ شديدُ التوكل بالأسباب، أو يتقاعسَ عن بعض النشاطات، وهذا خطرٌ على الإسلام، وعلى من سلك هذه المسالك، كما أنه سبّة في جبين بعض الصوفية الذين يحاربون الأخذ بالأسباب!!.

ـ وعمل رجال الدعـوة هو تجميعُ الناس على ربِّ الأسـباب، وعلى فقه وظيفة الأسباب! مع تعليمهم أنَّ الأسبابَ لابدَّ معها من الاستعانة بربّ الأسباب!.

والمعركةُ لا تكون على العناوين، فما يعنينا أن يُحْرَقَ اسم التصوف أو يبقى، وإنّما المهم أنَّ كلمةً مثل كلمة ابن عطاء الله السكندري: «ما بسقتْ أغصانُ ذلٍّ إلا على بذورِ طمعٍ» يجبُ أن تكون من أصول التربية التي تقطع أطماعَ البشر في غير الله سبحانه وتعالى، وتغرس ثقتهم جميعاً في ساحته وحده سبحانه، فمنه يطلبون وعليه يعتمدون!!.

وفي التصوف زهور كثيرة يمكن أن تُجْمَعَ وتفيد في علوم التربية والنفس والأخلاق، فرفض التصوف كلُّه مرفوض، كما أنَّ قبولَه بما يحتشِدُ به من أعشاب ضارة، وأشواك دامية، مرفوض كذلك!!.

إنّ الشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ ليأسَفُ من أنَّ في المسلمين صنفين يقفان على طرفي نقيض، لكنَّ الإسلام يأبى مسلكهما معاً!!.

صنف تلمسُ في قلبه عاطفةً حارةً، ورغبةً في الله عميقة، وحباً لرسوله بادياً، ومع ذلك نجده ضعيفَ البصرِ بأحكام الكتاب والسنَّة، يعلمُ منها قليلاً، ويجهل منها كثيراً، ويغريه بالتعصب للقليل الذي يعلمه أنه يأنس من نفسه صدقَ الوجهةِ، وقوةَ المحبة لله ورسوله ﷺ، والتي ربما افتقدها في غيره، فلم يشعر بها.

وصنف تلمسُ في عقله ذكاء، وفي علمِهِ سَعة، وفي قوله بلاغة، يعرفُ الصواب في أغلب الأحكام الشرعية، ويؤدِّي العبادات المطلوبة منه أداءً لا بأس به، ولكنَّه باردُ الأنفاس، بادي الجفوة، غليظ القلب، يكادُ يتمنّى العثارَ لغيره، كي يندد بأغلاطه، ويستعلي هو بما أوتي من إدراك للحق، وبصرٍ بمواضعه من كتابٍ وسنةٍ.

إنما المسلم الكاملُ رجلٌ نيّرُ الذهنِ والقلبِ معاً، حادُّ البصرِ والبصيرةِ معاً، تتعانَقُ فكرتُه وعاطفتُه في معاملته لله، ومعاملته للناس، فلا تدري أيهما أسبق، صِدْقُ أدبه أم حُسْنُ معرفتِه. ولا تدري أيُّهما أروع؟ خصوبةُ نفسِه الجياشة أم فطانةُ عقلِه اللماحِ!!.

وهذه الصفاتُ مشتقةٌ من طبيعة الإسلام نفسه، فهو دينٌ يبني عقائدَه من ناحية الصحة العقلية ـ على أسسٍ فكريةٍ تشبه البديهياتِ في علوم الرياضةِ من حسابٍ وجبرٍ وهندسةٍ.

والركائزُ العقليةُ لهذا الدين ثابتةٌ فيما شرعَ من معاملاتٍ عامة، وفيما يعرضُ له من مشكلات متجددة.

وإلى جانب هذا فالإسلامُ دينُ عبادةٍ تقومُ على سلامةِ القلبِ، وشحنهِ بالإخلاصِ، والحبِّ والأدبِ، وتجريدُه من الهوى والأَثَرة والغِش.

- وديـنُ الإنسـان ينقصُ بقدر ما يصحبُ عاطفتَـه الحارةَ من نقصٍ علمي أو عجزٍ فكري[1].

- فالجانبُ العاطفي في الإسلام أساسٌ لا يمكن إنكارُه، لكنّه - في الفكر الإسلامي الصحيح - مربوطٌ بشرطين:

- أن يعتمدَ على الكتاب والسنَّة.

- وأن يكون منسجِماً مع العقل الصحيح، بعيداً عن البدع والخرافات!!.

* * *

---

(١) الشيخ الغزالي، الجانب العاطفي من الإسلام، ص١١ - ١٣.

الشيخ الغزالي
وقضايا المرأة

ليس من المبالغة أن نقول: إنّ الشيخ الغزالي قادَ تياراً لإنصافِ المرأة المسلمة من منطلقِ الرؤيةِ الإسلاميةِ التي تؤصِّل حقوقَها وواجباتِها الاجتماعية والإنسانية!!.

لقد قاوم الشيخ تيار (التفريط) المحسوب على المسلمين، الذين أرادوا اغتيال حقوق المرأة، وأرادوا حرمانها من التعليم، والوظائف، ومن المساهمة في بناء المجتمع، كما سَعَوْا إلى حبسها في البيت حبساً مطلقاً.

كما قاوم تيار (الإفراط) الذي يستمدُّ مفاهيمه ومقولاتِه من الحضارة الغربية التي تعبث بإنسانية المرأة، وتجعلُها سلعةً تُباع وتُشترى، وتخدعها بمصطلحات كاذبة مثل حرية الجسد، وحرية المتعة البهيمية، وحرية تدمير الأسرة، ورَفْض قيادة الرجل التي يسميها الإسلام (القوامة)، سواء كانت هذه القوامة للأب أو للزوج، بالإضافة إلى الترويج لشعارات المساواة بطريقة تجعل سفينة الأسرة والمجتمع، تمضي دون قيادة قادرة مسؤولة!!.

يقول الشيخ الغزالي:

عندما جاءت الأناجيل قالت: إنّ الذي أخرجَ آدمَ من الجنة هو المرأةُ، فلذلك كره الناس البنات، فلمّا جاء الإسلام، رفض هذا الكلام، وقال: إن آدم مسؤول عن نفسه هو وزوجته معاً، فالله أعطاه ذاكرة فنسي، وأعطاه إرادة فضعفت، ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]. . . فآدم هو المسؤول.

وكذلك فإنّ قصة دخول الشيطان إلى بطن المرأة، والزعمِ بأنّ المرأة هي

التي ذهبت إلى آدم وأغوته ـ كلامٌ غيرُ صحيح، ولا أصلَ له.

فالإسلامُ عندما جاء تحدَّث عن المرأة على أنها إنسان كامل... وما يقال مخالِفاً لهذا هو من تُرَّهات الجاهلين، ولا أصل له.

لقد أساءت الأفكارُ والعقائدُ السابقةُ للإسلام للمرأة كثيراً، فنظرت إليها على أنها (شرٌّ لا بد منه) وأنها (رجس)، بل إنّ بعض الفلاسفة اليونانيين الكبار، قد دعوا إلى شيوعية المرأة؛ فكأنها قطارٌ للجميع، لا يجوزُ تخصيصُه... وهذا امتهان كبير للمرأة وللإنسانية كلِّها في حقيقة الأمر.

وقد ساعد نظام الرهبنة الكنسي على تأصيل احتقار المرأة وازدرائها... لكن الإسلام جاء فقال:

إنَّ الرجل والمرأة من نفس واحدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

ونحن نستطيع أن نفهم من كلمة (الأرحام) هنا الرحم الإنسانية العامة، ولا يعني هذا إهمال الرحم الخاصة، بل إنّها أولى، ولكن المقصود أن نرعى الإنسانية في فروعها المتشابكة المتكاثرة، التي تذهبُ إلى كل اتجاه، ولكنها من أصل واحد.

وبينما كانت المرأة تُحْرَمُ من الميراثِ، جاء الإسلام فقال: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

بل جعل الإسلام نصيبَ المرأة هي الوحدة الحسابية التي يؤخذ بها في توزيع الميراث بين الناس حتى لا تُحرم، وقد كان هذا جديداً في البيئة العربية، وكان جديداً في الديانات كلِّها، لأنَّ المرأة لم يكن لها في الديانات الأخرى ميراث، فلا المسيحية أعطت للمرأة ميراثاً، ولا اليهودية أعطت لها شيئاً،

أما الإسلام فهو الذي حفظ لها حقوقها في الميراث والمال بعامة.

ويرى الشيخ الغزالي أنَّ الإسلام قلب الموازين العالمية السابقة التي كانت تهين المرأة، وتحتقر أنوثتها ووظيفتها الطبيعية، كأم أو زوجة.

فالرسول عليه الصلاة والسلام عندما قال: «خيركُم خيركُم لأهلِه وأنا خيرُكم لأهلي»[1]. أي لنسائه، فقد كان حساساً جداً من ناحية جسمه ورائحته، وكان إذا مرّ في مكان عرف أن الرسول مرَّ من هنا، لأن المكان يظل فيه العطر الذي خلّفه وراءه، وكان إنساناً ملائكياً غيرَ عادي.

وفجع عندما قالت له واحدةٌ من نسائه: إني أجد منك رائحة مغافير[2]، فقال: لقد أكلت عسلاً عند فلانة، ثم أقسمَ ألا يشرب العسلَ لأنه لا يريد لإحدى نسائه أن تشعر بأنه يضايقها، ونزلت الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ ﴾ [التحريم: ١]، فصاحب الرسالة وأعظم رجل في الأرض، وأعظم إنسان في الأولين والآخرين كان حريصاً على مرضاة زوجاته لدرجة أن يحرِّمَ الحلالَ على نفسه ابتغاء مرضاة أزواجه، مع أنَّ كثيراً من الناس لا يراعون مشاعر المرأة وأنوثتها، ويعاملونها في إطار الزوجية معاملة دونية!!.

وأما بالنسبة للأمهات، فالجنة تحت أقدامهن «الجنة تحت أقدام الأمهات»، وقد أوصى الرسول ﷺ بالأم ثلاثاً، وأوصى بالأب مرة واحدة... أي أنه أوصى بها ثلاثة أضعاف ما أوصى بالأب، وقد سأل شخص الإمام مالك وقال له: لو أمرني أبي ونهتني أمي فماذا أفعل؟ فقال له مالك: أطع أباك ولا تعص أمك.

* * *

---

(١) حديث صحيح انظر (صحيح الجامع)، رقم (٣٣١٥).

(٢) المغافير جمع مغفور وهو صمغ حلوٌ له رائحة كريهة، ينضجه شجر يسمّى العُرْفط، والحديث في البخاري في كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ ﴾ الآية.

وتعليم المرأة أو تثقيفها من خلال المدرسة والمسجد والأسرة حق طبيعي لها مثل الرجل في إطار تبادل الخدمات، وتكامل المواقع، وتقدير الأولويات المطابقة للفطرة والمؤهلات الذاتية لكل من الرجل والمرأة... ولا فروق إلا ما تمليه شريعة الله المطابقةُ للفطرة والقدرة الذاتية.

ومن العجيب أنّ المسلمين في بعض عصورِ انحطاطهم لم يمنعوا المرأة من المدرسة فحسب، بل منعوها عن التعليم، والصلاة في المسجد أيضاً. ويرى الشيخ الغزالي: أنّ من تكريم الإسلام للمرأة السماحَ لها بارتياد المساجد، فالمسجد النبوي كان منذ إنشائه مدرسة يُربّى فيها الأولاد والنساء سواء بسواء.

وطوال العهد النبوي لم يصدر نهيٌ قط عن ارتياد المرأة للمساجد، بل صدر الأمر للرجال بإخراج النساء للصلاة من الفجر إلى العشاء؛ فقد روى صاحب (المحلّى) أن علي بن أبي طالب أقام للنساء مسجداً خاصاً ليصلينَ فيه صلاة التراويح، سواء أمّتهن امرأة، أو أمّهن رجل.

ومن هذا المنطلق فإنّ الأثر الذي رواه ابن حنبل: «أنّ صلاةَ المرأةِ في بيتها أفضلُ» مقيد بحالة ما إذا كانت هناك حقوق لزوجها أو أولادها، وقد علّق ابن حزم على هذا الأثر قائلاً: لو كان أفضل لها، فلماذا ترك النساء في العهد النبوي يتحملن مشقة الذهاب للمساجد في الهاجرة والظلمة، ويتحملن البرد والحر دون أن يُمنعنَ من ذلك؟!!.

ويؤيد الشيخ الغزالي هذه الرؤية لابن حزم؛ لكنه في الوقت نفسه يخشى أن يتركَ بعضُ النساء (الدراويش) بيوتهن، ويقمن في المساجد للصلاة، يتخلين عن وظيفتهن في البيت، التي هي فيه راعية ومسؤولة عن رعيتها، ولهذا فهو يرى أنه إذا كان البيت يحتاج إليها في إعداد الطعام، أو رعاية الأطفال، فإنّ صلاة الجماعة تسقط عنها، فإذا انتهت من أعمالها: «فلا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[1]، لذلك فالشيخ الغزالي مع ابن حزم في تخصيص عموم الأثر، وليس معه في أن تتركَ

(١) أخرجه مسلم وأحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما.

المرأةُ واجباتِها المنزلية، من أجل إدراك الجماعة في المسجد، فالله يعطيها أجرَ الجماعة على أن تبقى في بيتها، وتؤدي واجب رعاية الزوج والأولاد، فإذا انتهت من أعمالها ذهبت إلى المسجد.

كان الشيخ الغزالي يقف مع حجاب المرأة، ويراه الوسطية الإسلامية المحققة لإنسانية المرأة وفعاليتها في سياق واحد؛ فالسّفورُ يهدُرُ آدمية المرأة، ويجعلها سِلعةً مبتذلة، معروضة للجميع، تنشر بواعث الفاحشة أينما تحركت.

وأما النقاب فإنه يحول دون فعالية المرأة ويقدمها لغير المسلمين نموذجاً غير مقبول، فضلاً عن أنّ الحجابَ هو الأصل الشرعي، هكذا ذهب الفقه القديم والمعاصر في مجمله، وهو الرأي الذي مال إليه بقوة إمام المحدثين في العصر الحديث، ناصر الدين الألباني، كما أيّده بقوة الفقيه الكبير الدكتور يوسف القرضاوي:

«قال ابن قدامة (١/ ٤٣١): قال مالك والأوزاعي والشافعي: «جميعُ المرأةِ عورةٌ إلا وجهها وكفيها، وما سوى ذلك يجب ستره في الصلاة» لأن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣]، قال: الوجه والكفين، ولأنّ النبيَّ ﷺ نهى المرأة المحرمة عن لبس القفازين والنقاب، ولو كان الوجه والكفان عورة لما حرم سترهما، ولأن الحاجة تدعو إلى كشف الوجه للبيع والشراء، والكفين للأخذ والعطاء، وقال بعض أصحابنا: المرأة كلها عورة، لأنه قد روي في حديث عن النبي ﷺ: «المرأة عورة»[1] ولكن رخص لها في كشف وجهها وكفيها لما في تغطيتهما من المشقة».

إلى أن قال (١/ ٤٣٢): «ويكره أن تتنقّبُ المرأةُ وهي تصلّي... وأجمعوا على أن المرأة، تكشف وجهها في الصلاة والإحرام».

نقول: وذلك كتحريم تغطية الرأس على الرجال عند الإحرام، والرأس

---

(١) أخرجه الترمذي عن ابن مسعود وتمامه: «فإذا خرجت استشرفها الشيطان».

ليس بعورة بالنسبة لهم، وإلا ما وجب كشفه، وكذلك الوجه والكفان بالنسبة إلى المرأة، ونحن نعلم أن هناك متطيرين يرون أظافرها عورة، وهؤلاء لا وزن لرأيهم ولا لروايتهم[1].

والحنابلة هم أكثر الناس تشدداً في وجوب النقاب والتعريض بالحجاب، وهو أمر غريب، لأن مذهبهم في عمومه يميل إلى الحجاب الذي يقضي بكشف الوجه والكفين، ولهذا يعلّق الدكتور القرضاوي بعد أن يؤكد أصالة الحجاب - وليس النقاب - في الفقه الحنبلي قائلاً: «إنه غريب ألا يعرف الحنابلة مذهبهم. أليس الجهل عيباً»؟!!.

وقد يقولون: نحن نعرف المذهب، ولكنا نرى الميل إلى وجهة نظر أخرى، نقول: ليكن لكم ذلك، على ألا تعيبوا من يردد فقه إمامكم ويأخذ به، فليس ابن حنبل متهماً في نصحه للأمة وإخلاصه للدين. فكيف إذا كان فقهه في هذه القضية فقه جمهرة العلماء؟!!.

* * *

ويأخذ الشيخ الغزالي في فقهه بكل الآراء الفقهية الناضجة الأصيلة التي ذهب إليها أبو حنيفة ومدرسته، وابن حزم الأندلسي والمدرسة الظاهرية، ولذلك فهو يرى أنَّ مِنْ حَقِّ المرأة أن تتولى جميعَ الوظائف ما عدا الإمامة العامة (الخلافة)، وهو يبيِّنُ النطاقَ الذي قال فيه الرسول ﷺ حديثه الذي رواه البخاري: «لن يفلحَ قومٌ ولَّوْ أمرَهم امرأةً» فيربط هذا الحديث بنطاقه الخاص؛ لأنه يتعارض مع مقاصد الشريعة، ومع نظرة الإسلام الأصيلة للمرأة، التي تَرِدُ في نصوصِها المساواةُ بين الرجل والمرأة!! يقول الشيخ الغزالي في تحليله لنطاق هذا الحديث وظروفه:

لسنا من عشاق جعل النساء رئيسات للدول أو للحكومات... إننا نعشق

---

(١) الشيخ الغزالي كما عرفته؛ الدكتور يوسف القرضاوي، ص١٥٩، طبع دار الوفاء.

شيئاً واحداً، أن يرأس الدولةَ أو الحكومةَ أكفأُ إنسانٍ في الأمة.

وقد تأملت في الحديث المرويّ في الموضوع، مع أنه صحيحٌ سنداً ومتناً، ولكن ما معناه؟.

عندما كانت فارس تتهاوى تحتَ مطارقِ الفتح الإسلامي، كانت تحكمها ملكية مستبدة مشئومة.

الدين وثني: والأسرة المالكة لا تعرف شورى، ولا تحترم رأياً مخالفاً، والعلاقات بين أفرادها بالغة السوء. قد يقتل الرجل أباه أو إخوته في سبيل مآربه. والشعب خاضع منقاد.

وكان في الإمكان، وقد انهزمت الجيوشُ الفارسيةُ أمامَ الرومان، الذين أحرزوا نصراً مبيناً بعد هزيمة كبرى، وأخذت مساحة الدولة تتقلص: أن يتولى الأمرَ قائدٌ عسكري يوقفُ سيلَ الهزائم، لكن الوثنيَّةَ السياسية جعلت الأمة والدولة ميراثاً لفتاةٍ لا تدري شيئاً، فكان ذلك إيذاناً بأن الدولة كلها إلى ذهاب.

في التعليق على هذا كله قال النبي الحكيم كلمته الصادقة، فكانت وصفاً للأوضاع كلها.

ويعلّقُ الدكتور يوسف القرضاوي على توجيه الشيخ لهذا الحديث قائلاً: وما الذي جعل الشيخ يتجه بالحديث هذه الوجهة ويفهمه هذا الفهم؟!!.

هناك أمران ساقاه إلى ذلك:

أولهما: الحديث لا يناقِضُ القرآن: إنّ الوحيَ لا يناقِضُ بعضُه بعضاً، والسنَّة لا يمكن أن تناقض القرآن بحال.

فإنّ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قرأ على الناس في مكة سورة النمل، وقصَّ عليهم في هذه السورة قصة ملكة سبأ، التي قادت قومها إلى الإيمان والفلاح بحكمتها وذكائها، ويستحيل أن يرسل حكماً في حديث يناقض ما نزل عليه من وحي!.

كانت بلقيس ذاتَ ملكٍ عريضٍ، وصفه الهدهدُ بقوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣].

وقد دعاها سليمان عليه السلام إلى الإسلام، ونهاها عن الاستكبار والعناد، فلما تلقت كتابه، تروّت في الرد عليه، واستشارت رجالَ الدولة الذين سارعوا إلى مساندتها في أي قرار تتخذه، قائلين: ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣].

ولم تغتر المرأة الواعية بقوتها، ولا بطاعة قومها لها، بل قالت: نختبر سليمان هذا لنعرفَ: أهو جبّار من طلاب السطوة والثروة، أم هو نبيّ صاحب إيمان ودعوة؟ ولما التقت بسليمان بقيت على ذكائها واستنارة حكمها تدرس أحواله، وما يريد وما يفعل، فاستبان لها أنه نبيّ صالح... وتذكرت الكتاب الذي أرسله إليها: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠-٣١]، ثم قررت طرح وثنيتها الأولى، والدخولَ في دين الله قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

هل خابَ قومٌ ولَّوا أمرهم امرأةً من هذا الصنف النفيس؟ إنَّ هذه المرأة أشرفُ من الرجل الذي دعته ثمودُ لقتل الناقة، ومراغمة نبيهم صالح ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٩-٣٢].

وثاني الأمرين: أنّ الحديث النبوي - كما لا يناقض القرآن - لا يمكن أن يناقِضَ التاريخ الصحيح، والواقعَ المشاهد. يقول الشيخ: «إن إنكلترة بلغت عصرها الذهبي أيام الملكة (فيكتوريا) وهي الآن بقيادة ملكة ورئيسة وزراء، وتعد في قمة الازدهار الاقتصادي والاستقرار السياسي (أيام كانت مارجريت تاتشر هي رئيسة الوزراء). فأين الخيبةُ المتوقعةُ لمن اختار هؤلاء النسوة؟.

وقد حدثت في مكان آخر ضربات قاصمة أصابت المسلمين في القارة

الهندية على يدي (أنديرا غاندي) وكيف شطرت الكيان الإسلامي شطرين فحققت لقومها ما يصيبون!!.

على حين عاد المارشال (يحيى خان) يجرُّ أذيال الخيبة[1]!!.

المهم أن قضية عدم تولي المرأة للوظائف العامة، لم يثبت فيها إجماع، بل ثبتَ فيها الخلاف. فالحنفية يجيزونَ للمرأةِ أن تتولّى القضاءَ في الشؤون المدنية والشخصية وغيرها، ما عدا الأمور الجنائية، التي لا تُقْبَلُ عندهم شهادتُها فيها.

والطبري، وابن حزم، والظاهرية، يجيزون لها تولي القضاء بصفة عامة. بل إنّ ابنَ حزم يجيزُ لها تولي جميع الوظائف فيما عدا منصب الخلافة، أو الإمامة العظمى.

وأود أن أقول هنا: إن منصب الخلافة أو الإمامة العظمى أكبر من مجرد رياسة دولة إقليمية، فهذا في نظر السياسة الشرعية يعتبر والياً على إقليم، وأين هذا من الخليفة أو الإمام العام لأمة الإسلام[2]؟.

وهكذا يقف الشيخ الغزالي مع إنصاف المرأة، معتمداً على فقه رصين، وليس على إسقاطات وهمية نابعة من خارج الدائرة الإسلامية، كما يفعل كثير من دعاة تحرير المرأة، وهم يقصدون جعلَها أوروبيـةً في علاقاتها الاجتماعيـة والجنسية.

ومن الأدلة أيضاً على وقوف الشيخ الغزالي مع إنصاف المرأة ومساواتها بالرجل في الحق الإنساني العام، وقوفُه إلى جانب الرأي الفقهي الذي يرى أنَّ ديةَ المرأة مثل دية الرجل، فالديّة في القرآن واحدة للرجل والمرأة، والزعمُ بأنَّ دم المرأة أرخصُ من دم الرجل، وأنّ حقَّها أهـون، زعم مخالف لظاهـر الكتـاب العزيز، فإنَّ الرجلَ يُقْتَلُ في المرأة، كما تُقْتَلُ المرأة في الرجل، فدمُهما سواء

---

(١) الشيخ الغزالي كما عرفته؛ الدكتور يوسف القرضاوي، ص١٦٤ ـ ١٦٥.
(٢) المرجع السابق، ص١٦٥ ـ ١٦٦.

باتفاق. فما الذي يجعل ديةً دون ديةٍ؟!!.

وأمّا الحديثُ الذي ورد فيه أنَّ ديةَ المرأة على النصف من دية الرجل، فهو حديث لم يصح، وفيه قال البيهقي: «إسنادُه لا يثبتُ مثلُه، وفيه انقطاع، وليس في (الصحيحين) ولا في أحدِهما شيءٌ من ذلك البتّة».

وفي قتل الذمي الكافر بالمسلم مالَ الشيخ إلى الرأي الفقهي الحنفي، الذي يرى مشروعيةَ قتل المسلمِ قصاصاً إذا اعتدى على ذميٍّ معاهدٍ، وقتلَه عمداً. وحديث: «لا يقتل مسلم بكافر» معلولٌ بمخالفته[1] للنص القرآني: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

يقول الشيخ الغزالي: عند التأمُّل نرى الفقهَ الحنفيَّ أدنى إلى العدالة، وإلى مواثيق حقوق الإنسان وإلى احترام النفس البشرية، دون النظر إلى البياض والسواد، أو الحرية والعبودية، أو الكفر والإيمان. لو قتل فيلسوفٌ كانِسَ طريقٍ قُتل فيه، فالنفسُ بالنفسِ.

وقاعدةُ التعامل مع مخالفينا في الدين ومشاركينا في المجتمع: أنّ لهم مالنا، وعليهم ما علينا، فكيف يُهْدَرُ دمُ قتيلهم؟!!.

ويضيف الدكتور القرضاوي إلى ما ذكره الشيخ: أن القول المذكور ليس قولَ أبي حنيفة وأصحابه وحدَهم، بل هو قول الشعبي والنخعي أيضاً من أئمة السلف.

كما يضيفُ أنّ أبا حنيفة ومن معه تأوّلوا حديث: «لا يقتل مسلم بكافر» بأنّ المرادَ به الكافر الحربي، بدليل ما جاء في حديثٍ آخر: «لا يُقْتَلُ مسلمٌ بكافرٍ، ولا ذو عهدٍ في عهدِه» أي بكافرٍ، والمراد به: المحارِب، بدليل جعله مقابلاً للمعاهد[2].

---

(١) يرى جمهور العلماء أنه مخصص لعموم الآية. (الناشر)

(٢) الشيخ الغزالي كما عرفته؛ الدكتور يوسف القرضاوي، ص١٦٧ ـ ١٦٨.

وهكذا كان الشيخ الغزالي يدور مع القواعد الشرعية الأصلية التي تنصِفُ المرأة، وتحقق مساواتها وفعاليتها، وتنقذُها من الإفراط الذي أوقعتها فيه الحضارة الأوروبية، ومن التفريط الذي أوقعَها فيه تخلُّفُ المسلمين وفهمهم المغلوط لدينهم... وقد كان الشيخ الغزالي يهدُف من جهاده في مَيْدانِ المرأة إلى تنشيط هذا النصف الأساسي من الأمة، وإلى إنقاذِ المرأة من دعوات الهدم، والتقليد الأعمى والتدمير الأخلاقي التي تتلفَّع بأرديةٍ كاذبةٍ، وشعاراتٍ خادعةٍ، وهي - في حقيقتها وثمارها - دعواتٌ ضد حرية المرأة، وضد المعنى الحقيقي للتقدم والمدنية، بل ضد إنسانية المرأة وكرامتها الأنثوية.

* * *



الشيخ الغزالي
والحضارة الغربية

ينصِفُ الشيخُ الغزالي الحضارة الغربية، ويتمنّى أن يعتدِلَ الميزان لديها، فتقفُ مع الحقِّ أينما كان، ولا تكيل بكيلين، وتؤمن بالقيم الأخلاقية العليا، وبالحق، وبالله خالق السموات والأرض، وبأنّ الله لم يخلق هذه الدنيا عبثاً، ولا غابةً يكون فيها البقاء للأقوى، وليس للأصلح.

وفي كتابات الشيخ الغزالي كان يأسفُ دائماً من أن أوروبة وأمريكة والسائرين في فلكهما لا يواجهون القضايا بالحوار والمصارحة، وإنّما بالتآمر، واصطناع العملاء، وتخريب الأوطان من داخلها، ونشرِ الفساد الفكري والأخلاقي لتحطيم الآخرين!!.

هكذا كان دأبُ الاستعمار الأوروبيِّ الحديث كله، والاستعمار المعاصر لنا، المتمثل في الهيمنة الاستعمارية الأمريكية العالمية، المسماة بالنظام الدولي الجديد، ذلك النظامُ الذي ينتهي بطحن الشعوب الإسلامية والنامية، وتمكينِ الدولة القوية من تحقيق مزيد من القوة والرفاهية على حساب الشعوب المكافحة، التي كانت تستحقُّ أن تأخذَ الدول القوية بيدها، وأن تعلِّمها أساليبَ التقدم العلمي الحقيقي، لا أن تنشر بينها الفنون المبتذلة، والرياضات المنهكة للطاقة، والعادات الاجتماعية اللاأخلاقية.

لم ينكر الشيخ الغزالي الجهد العقلي الكبير الذي بذلته الحضارة الأوروبية، وما قدمته للإنسانية من اختراعات وتيسيرات، ولكنه كان يأسف من أنّ الكنيسة جعلتْ هذا العقلَ يكفرُ بالدين، ويؤمن بأن هناك تناقضاً بين الوحي والعقل، وبين العلم والدين.

ومن ثَمَّ ينحازُ الأوروبيُّ للعلم ضد الدين، وللعقل ضد الوحي . . . مع أنَّ الجانبينِ متكاملانِ، لا ينفصل أحدُهما عن الآخر، فلا دينَ بغير عقلٍ، وويلٌ للعلم الذي يمضي في طريقه دون حراسةِ الدينِ والأخلاقِ!!.

وللأسف فإنَّ مثقفي أوروبة من خلال بعض أبنائها المستشرقين، وبعض عملائها المستغربين، سحبوا على الإسـلامِ وحضارتِه ما أدخلته الكنيسـة على الدين النصراني والنصرانية الصحيحة منه براء.

وكان من نتيجة هذا أن نظرت أوروبة إلى الإسلام بالعين نفسها التي تعاملت بها مع الكنيسة النصرانية، ولم تحاول أن تتعرّف التعرف الموضوعي على الإسلام حتى اليوم من خلال مصادره الأصلية.

وما دامت تجد المستشـرقين والمسـتغربين من العرب والمسـلمين الذين يقدّمون لها الإسلام اللاهوتي الذي تريده، ويحاربونَ الإسلام الصحيح (باسم العقلانية والحداثة والعلمانية) ويقتطعون بعض لبناته، ويلوون عنق النصوص. . فهي تقنع بالإسلام المنقوص الذي تريده، وبالتالي تحرمَ نفسَها والإنسانيةَ من التعرف الموضوعي على الإسلام، وهو تعرُّف من شأنه أن يقودَ مسيرتها قيادةً حكيمةً، ويحقِّقَ لها سيادةً عامَّةً تسعدُ بها الإنسانيةُ كلها، بعد أن عجزَ المسلمون اليوم للأسف عن حمل هذا الدين، وتقديمه التقديم الصحيح، وبذل المجهود المطلوب في إبلاغه، مكتفين ببعض المظاهر الشكلية.

إن الإسلام دين الحضارتين الغربية والشرقية، ومن المعروف أنّ اليهودي يقف في إيمانه عند موسـى، ويجحد من جاء بعده، ويقول فيهم السـوء، وأنّ النصراني يقف عند عيسى في إيمانه، ويجعله إلـٰهاً، ويكذِّب مَنْ جاء بعده، وهو محمد ﷺ.

أما الإسلام فهو دين شامل، يأمر أهله أن يؤمنوا بـ (موسى) و(عيسى) و(محمد) على السواء، وأن يوثّقوا أواصرَ القربى بينهم وبين سائر المرسلين،

وأن يجعلوا ولاءَهم (لموسى وعيسى) جزءاً من ولائهم (لمحمدٍ) نفسه، فلا تفرقة بين نبي ونبي.

الكلُّ ينقلُ عن الله، ويجتهد في نفع عباده. والكلُّ أدى واجبه في إنقاذ البشرية من أهوائهم وقيادتهم إلى الخير والحق والمعروف.

والله سبحانه وتعالى بعد أن عدَّ جملةً من أسماء النبيين الأكرمين قال لرسوله محمد ﷺ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهذه الآية من القرآن العزيز تفيد أن الطريقة واحدة، سبق فيها من الهداة من سبق، ثم جاء النبيُّ الصالح (محمد بن عبد الله) ﷺ مجدداً ما بَلِيَ - على الزمن - من أعلامِها، ومؤكِّداً ما بقي من حقائقها، ومتجرِّداً في دعواته، لا يطلبُ عليها أجراً، ولا يبغي بها مجداً أو فخراً.

إنه مذكِّر فحسب، يوقظ النيام، وينبه الغافلين.

وقد كره محمد رسول الله ﷺ أن يفضَّلَ على أحدٍ من إخوته المرسلين[1].

ويتألم الشيخ الغزالي من التحول الخطير الذي طرأ على أتباع موسى وأتباع عيسى بحيث أصبحوا لا يفكرون إلا في الشر للعالم، وإلاّ في خير أنفسهم فحسب، وإلا في قهر الآخرين، وإرغامهم على صياغتهم للحياة، وهي - للأسف - صياغة مادية منحلة ظالمة، مبتورة الصلة بالله وبالحق!!.

إنّ البشرية كلَّها مقبلةٌ على كارثة في ظل ضياع القيم الأصلية لليهودية والنصرانية، وجمود اليهود والنصارى عند المعتقدات الموروثة توراتية كانت أو كَنَسيَّة، ورفضهم الحوار الإيجابي الباحث عن الحق... وبالتالي رفضهم المبدئي للإسلام جملة وتفصيلاً لمجرد شهواتهم التسلطية (الاستعمارية)

---

(١) ظلام من الغرب، محمد الغزالي، ص٧، ط. دار القلم.

واعتماداً على المستوى المتدني للمسلمين ـ حكاماً ومحكومين ـ!! .

يقول الشيخ الغزالي بحسرة وأسًى: ما العمل إذا تحولت اليهودية إلى صهيونية آثمة تلغ في الدماء والأعراض، وتبني وجودَها على الفتك والغصب!؟ .

إن موسى أول الناس براءةً من هذه العربدة السياسية .

والمسلمون إذا انتصبوا لمقاومتها، ومخاصمة أهل الأرض طُرّاً في سبيل القضاء عليها فهم معذورون مشكورون، وليس ينكِرُ عليهم عملهم هـذا إلا سياسيٌّ أفاك، أو مغرِضٌ مفضوحُ الدخيلة .

لقد كنت ـ كأي مسلم ـ أشيِّعُ موسى بقلبي، وهو هارب من بطش فرعون، وأصحبه بمشاعرَ متوجسةٍ قلقةٍ، وقد خرجَ خائفاً يترقب، يقول: ﴿ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٢١]، ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٤].

فانظر إلى أتباع النبي الفارِّ من الظلم، والممدود اليد إلى خير الله يستنزله في ضراعة وخشوع!! .

إنَّ هؤلاء الأتباع يقترفون اليومَ أبشعَ مظلمةٍ في العالم، ويتنادون في صفاقةٍ لانظيرَ لها: أن اقتلوا العرَبَ، واستولوا على ديارِهم وحقوقهم، ودعوهم يهيمون في الصحراء الموحشة، ليهلكوا من الانقطاع والضياع .

إنّ هؤلاء الأتباع بل الأدعياء تحوّلوا إلى عصابات خليقتُها الغدرُ، وراحتُها البغيُ، وطعامُها الربا، وريّها عَبّ الدماء من أجساد الضحايا، وأملُها أن تشبعَ أثرتها أو ترى المدائن والقرى خرائبَ وأطلالاً ينعقُ فوقَها البومُ!! .

أهذا ميراث موسى؟ كذبوا. ما أبعد البون بينه وبينهم .

إنَّ حصدَ هؤلاء الطاغين قربان إلى موسى، وإلى سلفه إسرائيل وإلى ربهما ورب العالمين. . . !! .

وما يقال في تحويل اليهودية إلى صهيونية، يقال في تحول النصرانية إلى استعمارٍ همجي لا ضميرَ له، وفي تحالفها مع اليهودية بغية استئصال شأفتنا، واجتياح بقيتنا، هكذا يحلمُ بنو إسرائيل، وهكذا تشدُّ أزرَهم دولُ الاستعمار الغربي، ونتساءل: أليس الإسلامُ هو الذي حادَّ اليهودَ، وأعلن غضبته عليهم لموقفهم من عيسى وأمه: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ۝ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٧].

بلى! ولكن الاستعمار الصليبي لا يكترث بشيءٍ قَدْرَ ما يكترِثُ بتدويخ المسلمين، وإيرادِهم مواردَ البوار.

ـ أما صلتُهم بعيسى وإنجيلِه فقد حوَّرتها الليالي التي تلدُ العجائبَ!!.

ـ كان عيسى رجلاً رقيقاً عامرَ الفؤادِ، جيّاشَ العاطفةِ، موصولاً بالله، وكان ينكِرُ على المتاجرين بالأديان غِلظةَ طباعِهم، وجفافَ الرحمةِ من قلوبهم. واليوم نتفرّس في فعالِ المنسوبين لاسمه مبلغَ ما تذوق الشعوبُ من ويلاتهم، فلا ترى في وجوهِهم إلا ملامح (تيمور لنك) و(هولاكو) وجحافل التتار، وهي تنسابُ في الدنيا لتعز من أذل الله، وتذل من أعزَّ الله[١].

لكن الأوروبيين لا يعلمون أنَّ الله غالبٌ على أمره، وأنَّ مكرَ اللهِ أشدُّ من مكرهم، وأنَّ السُّمَّ الذي يريدونَ قتلنا به سوفَ يوردُهم مواردَ التهلكة، ولن يجدوا مصباحاً في ليل الصهيونية والصليبية الكنسية البهيم... وها هم الآن يعانون من شتاء المادية الجاف، وتبتلعهم أمراضُ العصر، من شقاءٍ نفسي، ودمارٍ أخلاقي، وحروبٍ عالمية، وأحقادٍ بشرية عامة تتمنى الموت لأمريكة وللحضارة الأوروبية، التي تضمر الإلحاد، وتتعامل مع الله والدين بنفاق!!... أحقادٍ تتمنى لهذه الحضارة الأمريكية الأوروبية أن تنتحرَ داخلياً، كما انتحرت القوةُ الشيوعيةُ السوفيتيةُ، وهي قوةُ الإلحادِ الظاهرِ المستعِلن!!.

(١) ظلام من الغرب، محمد الغزالي، ص٩ ـ ١٠.

إن الحياة في أوروبة ـ وهذا أمر لا ينكره أحد ـ تمتازُ ـ بتأثير الصهيونية والكنسية اللاعقلانية ـ بأنّها حياةٌ مغرقةٌ في المادية، وصلتُها باللهِ واهيةٌ أو صورية.

والإنسانُ في الغرب يعبد الحياة، وينحصر في مطالبها.

وقد تقول: لكنهم نصارى متمسكون بمذاهبهم، ومتعلقون بكنائسهم.

والجواب: أنّ التدين المنحرف المشوبَ يحتلُّ من النفس الإنسانية جانباً منزوياً مهمَلاً، لا يصدها عن شرّ، ولا يحضُّها على خير.

وهو إن اختلط بالسلوك العام فلتسويغِ خطيئةٍ، أو لتسليةِ كربةٍ.

وقد ينتفع به ـ كأي تدين مصنوع ـ في إلباسِ الجرائمِ ثوبَ الأعمال الصالحة، أو قد ينتفع به كعصبيةٍ عمياء تهيّجُ بها الأحقاد، ويكادُ بها للخصوم.

والاستعمار الغربي يرتبط بالنصرانية لتخدم أغراضه فحسب!!.

ـ أما أوروبة وأمريكة بعد تعريتهما من التزاويق والتهاويل، التي تظهران بهما، فقطعان من البشر، لا تعرف لها رباً، ولا ترجو ثواباً، ولا تخشى عقاباً.

كتب الأستاذ توفيق الحكيم يصفُ الفراغَ الروحي في الحضارة الغربية فقال: «هل الإنسان وحده في هذا الكون؟ لقد أجاب العصر الحديث فعلاً بأنَّ الإنسان وحدَه لا شريكَ له في هذا الكون، وأنه إلـه هذا الوجود، وأنَّه حرٌّ تمامَ الحرية».

«وبهذا الجواب ـ الذي قضى على تعاليم الأديان ـ ختم العصر الحديث على نفسه بطابع المادية».

«وعلى الرَّغمِ من بقاءِ الدين في كثير من البلاد المتحضِّرةِ ماضياً في دعوتِه، محافِظاً على مظاهر قوته، إلا أنَّ الناس جميعاً حتى المتمسكين بالطقوس، وروح النصوص، قد سيطرتْ عليهم النزعةُ المادية، ودون إدراك منهم، لأنّ جو العصر كله قد تشبَّعَ بها تشبعاً لا تجدي في صدِّه النوافذ المغلقة، ولا الأبواب المؤصدة،

فهواؤه يتسرب إلى النفوس وهي لا تفطن».

- تلك هي علاقةُ الحضارة الحديثة بالله، وذلك مبلغ توجيه النصرانية لها.

- ومن الملاحظ على حضارة الغرب المادية أيضاً أنَّها أجابت رغبات النفوس، ويسّرت منالها لعامة الناس، وزادت شراهة الشهوات - الحرام والحلال معاً - بحيث أصبحت اللادينيةُ واللاأخلاقيةُ هي الأقانيمُ الجديدة المقدّسة.

- فالزنى لا يحرِّمهُ قانون، وكذلك الخمر.

ومتى يُسِّر هذا وتلك، وقُرِّبا للطالبين بالمجان، أو بالثمن الزهيد، فإنّ الدخول في مساخط الله - إنْ ذكره أحد! - أمسى يشبه الدخول في الحدائق العامة، متعة مبذولة للراغبين . . . !!

وأحسب أنَّ اللذائذَ التي حظى بها الملوكُ الأقدمون، وانفردتْ بها قصورُهم قد دخلت الآن أغلبَ البيوت.

والعامل بأجرٍ يومي يمكنهُ أن يدخلَ صالات الرقصِ، ليخاصِرَ النساءَ ويسمع الموسيقى والغناء، ويسكر ويضحك دون مبالاة.

وعندما استعمرت أوروبة بلادنا، وهي متحلِّلةٌ من قيود الإيمان اجتهدت أن تنقل إلينا صورةً من حياتها هذه.

فلما اصطدمت بتعاليم الإسلام الموروثة، وتقاليدِه الباقية بين أهله، عملت على إماتةِ هذا الدين بإبعاد شرائعه، واحتقارِ تقاليده[1].

واصطنعت الحضارة الأوروبية عملاء يقاتلون نيابةً عنها، يزعمون أنهم مسلمون، وهم في الحقيقة سماسرة للغزو الفكري، وتجار يقومون بأعمالهم لحساب الصليبية والصهيونية، أصبحوا مجرد أدوات، لا تحاول أن تفهم الإسلام، بينما لا ترى في الحضارة الأوروبية إلا خيراً، وتتغاضى حتى عن الحملة

(١) ظلام من الغرب، محمد الغزالي، ص١٤، ١٥.

الفرنسية التي داست الأزهر بخيولها، ووضعت (سليمان الحلبي) على الخازوق، فيسبِّحونَ بحمدها، ويدعون الأمة لخيانة دينها وتاريخها ولغتها العربية، وإخوانها المسلمين في العالم.

ويرى الشيخ الغزالي أنّ الحضارة الأوروبية تقوم بكل هذا انطلاقاً من ثوابت لا تريد أن تحيدَ عنها، وهي الكيد الدائم للمسلمين، والرفض الدائم للتعرّف على ما لديهم من مفاهيم دينية وحضارية وأخلاقية.

ومع كل هذا فالشيخ الغزالي لا يفتأُ يذكِّر قومَه بعواملِ القوة في الحضارة الأوروبية، داعياً لهم إلى الأخذ بها، مقاوِماً أحلامَ بعضهم في وراثتها، دون أن يكونوا أهلاً لذلك؛ فالله سبحانه وتعالى لن يترك الأرض بلا قيادةٍ، ولن يعطيَ قيادةَ الأرض للخاملين غيرَ الأكفاء، ولن يخلف سننه وقوانينه التي وضعَها وجعلَها مقاييس للفوز في هذه الدنيا، وهي مؤهلات محايدة، لا علاقة لها بما سيقع في الآخرة إلا في جانبي الحق والخير.

* * *

وهكذا نجد الشيخ الغزالي مع هذا النقد الموضوعي للجذور العقدية والفكرية والأساليب اللاأخلاقية للحضارة الأوروبية، ومع نقده أيضاً للدور المدمر للصهيونية والكنيسة اللتين احتلتا مكان اليهودية والنصرانية الصحيحتين... مع هذا النقد الموضوعي الذي تبصره كل العيون، وتعاني من آثاره القافلة الإنسانية كلها منذ قرنين، فإن الشيخ الغزالي لم يغمط الحضارة الأوروبية حقها.

إنه يمدح الجانبَ العقليَّ فيها... وهو ذلك الجانب العلمي التطبيقي، وليس الجانب الفلسفي أو الإنساني... إنه يعترِفُ بأنَّ الحضارة الأوروبية نجحت نجاحاً ملحوظاً في اكتشاف الكثير من قوى الكون، وجعله طوع بنان الإنسان، يرفه به عن نفسه إذا شاء، ويدافِعُ به خصومَه إذا شاء، وما أحسب الإنسان على طول تاريخه بلغ ما بلغه من سيادة وتمكين في البر والبحر والجو، إلا بفضل الحضارة الأوروبية التي اعتصرت سلاف الحضارة الإسلامية والحضارات السابقة.

إن يد الأوروبي الطولى في ميادين العلم والتطبيق أمكنته من ارتقاء صناعي باهر، شمل المجال المدني والعسكري على سواء، وها هو ذا بعد أن قدر على الأرض يرنو إلى غيرها من الكواكب!!.

ويقول الشيخ الغزالي في جملة تقويمه لحضارة أوروبة العلمية: «ولا أحبُّ أن أغضَّ من عظمةِ هذا التقدم الكبير، ولا أن أتذرعَ بسوء استخدامه إلى النيل منه، إنَّ جحودَ النعمةِ رذيلةٌ منكرةٌ، أما النعمة نفسُها فشيءٌ جميل».

ـ ويتابع الشيخ الغزالي اعترافه بأفضال الحضارة الأوروبية، فيرى أنّ من الخطأ أن نلوم التقدم الصناعي، لأنّ بعضَ الناس أساءَ استغلاله، فإنّ المشرفين على مسيرةِ المجتمع، وبناءِ الأخلاق، وضبطِ العادات والعبادات، كان يجبُ أن يواجِهوا هذه التغيُّرات بما يصون الأفراد والجماعات.

ومن ثَمَّ فأنا أحتفي بالجوانب المادية من الحضارة الحديثة، ولا أشارِكُ المتشائمين منها، ولا الضائقين بها، لقد قلتُ، وما زلت أكرر القول: إنّ الإنسانَ مَلِكٌ في هذا العالم، كرّمه اللهُ أكثرَ مما كرَّمَ غيره، وسخَّرَ له الأرض والسماء وما بينهما، وكل ما طلبه منه ـ بإزاء هذا الخير الدافق ـ أن يعرف ربَّه فلا ينكره، وأن يشكرَه فلا يكفره... أذلك صعب؟!!.

ومعرفة الله وشكره ليسا كلمات تقال؛ وإنما هما إقامة موازين العدل والحق في الأرض، وتحقيق الكرامة للإنسان الفرد؛ والإنسان المجتمع؛ في إطار خصوصيته التي كرّمها الله سبحانه وتعالى، حين جعل الإنسانية خليفةً في الأرض بصرف النظر عن اختلاف عقائد الناس وألوانهم وأجناسهم. فهذه حكمة الله في خلقهم... بل إنه ـ سبحانه ـ لذلك خلقهم.

أجل خلقهم لتحقيق التنوع والتنافس وديمومة الصراع بين الخير والشر، والحق والباطل، إلى يوم القيامة... ولا تصلح الدنيا بملائكة فقط، أو شياطين فقط. وليس للحضارة الأوروبية أن تبيد خصومها كما أبادت أمريكة الهنود الحمر، وأباد اليهود الفلسطينيين!!.

ـ بل إنّ إقامةَ موازين الحق هو الأمل المرتقب. . . كي تبقى للحضارة الأوروبية رسالة تسمح لها بالبقاء. . . وإلا فمآلها الدمار، الذي لن تقفَ آثارهُ عند حدودها وحدها، بل يمتد ـ كالنار ـ ليلتهم مساحات كبيرة في خريطة الحضارة الإنسانية!!.

* * *

إنَّ البشريةَ ـ غير البيضاء ـ قد عانت ـ وما زالت ـ منذ قرنين من الاتجاهات الوثنية والمادية واللاأخلاقية في الحضارة الأوروبية!!.

ـ فلليابان التي ضُربتْ بالقنابل النووية ذكرياتٌ مؤلمة مع أمريكة وأوروبة!.

ـ وللصين التي خططت بريطانية لتدميرها بالأفيون رصيدٌ سيِّئ مع هذه الحضارة!.

ـ وفيتنام، والهند، والجزائر، وليبية، والشام، وأفغانستان، وأفريقية السوداء. . . لهذه، ولغيرها، صفحات سوداء بربرية وهمجية وإبادية، كتبتها سلوكيات ومخططات الاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي والأمريكي!!.

ومن البديهي أنّ الاستعمار الصليبي والصهيوني لم يعمل على الأخذ بيد شعبٍ احتله أبداً إلى مدارج الحضارة، وكان كلُّ همه تجنيد الخونة المروِّجين لثقافته، وجعل الاقتصاد والسياسة تابعين لإدارته ومخططاته الكبرى، ونشرِ الانحلالِ والفسادِ في الحياة الاجتماعية باسم الحرية والعقلانية والتقدم!!.

أما التقدم في العلم والصناعة والحرية الحقيقية فقد حرّمها على الشعوب التي حكمها. . . ولهذا جاء تعبير الشيخ الغزالي (ظلام من الغرب) في موضعه حين جعله عنواناً لكتابه. . . لكنه مع ذلك تعبير يدعو الغرب إلى أن يعود إلى حظيرة الإنسانية، وإلى أن يصحح رؤاه، ويعدّل أساليبه. . . وإلا فإنه لن يفلتَ من عقاب الله، الذي لن يتأخر طويلاً. . . : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٣].

* * *

مواقف الشيخ الغزالي
ضدّ الشيوعية والعلمانية والتنصير
١ ـ الشيخ الغزالي وموقفه من الشيوعية

كان الشيخ الغزالي من أوائل من كتبوا في العدل الاجتماعي، وفي مقاومة الإقطاعيين والمترفين، وكان كتابه (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) رائداً في بابه، وعلى خطاه جاءت دراساتٌ إسلامية كثيرة، تتحدث عن (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، (واشتراكية الإسلام)، (والتكافل الاجتماعي في الإسلام).

بيدَ أنّ ذلك كان يتم في دائرة الإسلام، فالإسلام يتضمن من المبادئ ما يعالِجُ به كل الأمراض، التي تأتي في المسيرة التاريخية، لأنه صالح لكل زمان ومكان، وهذه العدالة المنشودة للمستضعفين والفقراء شيء، والمذهب الشيوعي شيء آخر، فهذا المذهبُ في حقيقتهِ ما جاء لهذا، وإنما جاء يتذر[illegible] لإعلان الحرب على الأديان، وقطع الصلة بين الأرض والسماء، وبين الإنسان والله . . .

ولو كان الأمر أمر إنصاف للمقهورين والمظلومين؛ لما استلزمَ الأمرُ هذه الإبادة الجماعية[1]، واجتياح الجيوش الشيوعية لعواصم كثيرة، وتسليط الشيوعية لكثير من الجبارين يفتحون المعتقلات، التي تشبه المجازر والمسالخ لكل من يختلِفُ معهم في أدنى رأي، ولكلٍّ من يريدُ أن يتجه بعمله لله، ويرى أنّ

---

(١) بلغ عدد ضحايا فرض الشيوعية في المعسكر الاشتراكي (١٠٠) مليون قتيل معظمهم من العمال والفلاحين، كما جاء في كتاب الشيوعية الأسود، الذي نُشر مؤخراً في باريس. (الناشر)

الدينَ رحمة وعدل وحب، وأنه صديق لنا لا علينا؛ بل هو أصدق صديق لهؤلاء الفقراء والمستضعفين، وهو الذي جعل لهم حقاً معلوماً في أموال الأغنياء، وساواهم بالأقوياء والأغنياء حين أدَّب الأغنياء، وجعلهم يقفون معهم في صفوف واحدة في الصلاة، وأرغمهم على الجوع معهم في الصيام، وعلى الطواف والسعي معهم سواءً بسواءٍ في الحج، بل جعل الفقيرَ الضعيفَ الأحفظَ للقرآن يؤمُّ الغنيَّ القويَّ في الصلاة، وعلى المأموم أن يكون تابعاً للإمام في كل حركاته وسكناته، فلا يتجاوزه أبداً، وإلا بطلت صلاته!!!.

ـ أمثل هذا الدين الذي جعل من العبيد إخواناً للسادة؛ بل ملوكاً يحكمونهم كما في دولة المماليك ـ يقال له: إنّك أفيون الشعب، وإن الإيمانَ بك تخديرٌ للعامة، ويجبُ الوقوف ضدك، إنصافاً للطبقات الفقيرة؟!!.

ـ كلا وألف كلاّ... لقد أدرك الشيخ الغزالي أنّ الشيوعية ليست دعوة اجتماعية أو اقتصادية؛ وإنما هي دعوةُ إلحادٍ وكفرٍ، وأنها نِحْلةٌ يهوديةٌ لتدمير الدين، حتى يفرغ العالم، ولا تبقى إلا الماسونية والتوراة.

وأدرك الشيخ الغزالي أنّ خلايا الشيوعية في مصر وغيرها، قامت أساساً على أكتاف اليهود، وأن مؤسسي الشيوعية إما يهود بطريقة ما، وإما عملاء لليهود، وأنهم أصنامٌ جديدة جاءت تعمل على إزالة أديان الله، وتعمل أيضاً على أن تدفعَ الناس كي يعبدوا ماركس ولينين من دون الله.

وبالنسبة لمصر والعالم العربي والإسلامي، وجدَ الشيخ الغزالي أنّ الحكومات التي رفعت لواء الشيوعية أو الاشتراكية، كانت حكومات لا همَّ لها إلا الحرب على الإسلام، والتنكيل بالمسلمين، وتفريغ الشباب، بل والأطفال من الولاء للدين، وتحويل المساجد إلى متاحف ممنوعة من العمل للدعوة، ولا يؤمُّها إلا العجزة والشيوخ، وكذلك الحال في دور العلم الإسلامي من معاهد وكليات وجامعات.

وقد وقف الشيخ الغزالي ضد هذا المدّ الشيوعي وقفةَ عالمٍ عاملٍ،

لا يخشى في الحق لومة لائم، ولعلّ معركته ضد الميثاقَ الوطني، الذي أرادت الناصرية أن تجعله أقنوماً للشباب، وعقدتْ من أجلِه مؤتمراً وطنياً لكي تقرره على الأمـة، حتى يحتلَّ منها مكانَ الشـعور والاهتمام، ويصبح دليـل عملهـا ودستورها، وكان الشيخ الغزالي عضواً في هذا المؤتمر المسمى (المؤتمر الوطني للقوى الشعبية). . . لعلّ معركته تلك من أقوى الأدلة على إخلاصه لدينه وللحق دون خوف!!.

وقد لا يعرف الناسُ معنى أن يختلِفَ شخص مع رأيٍ يقوله شخص مثل جمال عبد الناصر. . إن رأسه ومستقبله قد يكونان ثمناً عادياً لمثل هذا الاختلاف المعلَن، لكنّ الشيخ الغزالي رأى أنه لا بدَّ من هذا الخلاف مهما كان الثمن، فلا بدَّ من الوقوف في وجه هذه الشيوعية الزاحفة تحت اسم الاشتراكية، فرفض ما أعلنه الرئيس من المساواة الكاملة، والحرية الكاملة بدون ضوابط وموازين عادلة بالنسبة للمرأة. وقد أعلن جمال عبد الناصر آراءه بطريقةٍ تنتهي إلى تفكيك الأسرة، وتدميرِ المجتمع، وهدمِ قوانين الله في الأسرة والمواريث.

وبإيعاز من السـلطة ـ بيقين ـ تحرك الكاريكاتوري والممثل الشـيوعي (صلاح جاهين) فرسم صفحةً كاريكاتورية ساخرةً من الشيخ الغزالي في أوضاع مختلفة، وذلك في جريدة (الأهرام) لسان حال الحكومات الثورية المصرية!!.

وقد أجج هذا مشـاعرَ الأمة، فانطلقت لأوَّلِ مـرة في عهد عبـد النـاصر مظاهراتٌ تعلِنُ فيها رفضَها للإلحاد والشـيوعية، وتطالِبُ بالإسـلام، وتمجِّدُ شـجاعة الشيخ الغزالي، وتحرَّكتْ الجموعُ في يـوم الجمعة أول يونيو ١٩٦٣م متجهةً إلى جريدةِ الأهرام، لموقفها الرديء، وحاولتْ تحطيمَ زجاج المبنى، ونجحتْ في شيء من ذلك، واضطرت الدولة خوفاً على حياة (صلاح جاهين) للتدخل، فجعلتـه يقدِّمُ اعتذاراً عن جريمتـه، تهدئةً للجماهير السـاخطة، وقد استغلَّ الشيخُ الغزالي عضويتَه في المؤتمر، وحاربَ الأفكار الشيوعية بضراوةٍ، لأنَّ الصحفَ كانت ملزمةً بنقل آرائه، مما أحرجَ الحكومةَ المصرية، وفضح

اتجاهها الإلحادي المعادي للإسلام وللدين كله، بل إنّ الشيخَ الغزالي، حمل على الصحافة المصرية كلِّها، واتهمَها بالتهجم على علماء الدين، واحتجَّ على محاربتها للإسلام، معتمداً على ما نشرته مجلة (روز اليوسف) ـ وهي مجلة ذاتُ موقفٍ ثابت معادٍ للإسلام ـ زاعمة فيه أنّ الله خرافة، وما نشرته صحيفة (المساء) حين صوّرت ديكاً وراءه تسع دجاجات. وكتبت تحته عنوان (المِزْوَاجون) ـ محمد أفندي المتزوج تسعة، وهي تقصدُ من هذا الإساءةَ إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام، متناسيةً أنّ نبيَّ الله سليمان كان عنده ألف امرأة، ثلاثمئة حرة، وسبعمئة أمة، ومتجاهلةً أنّ محمداً عليه الصلاة والسلام عاش خمسة وعشرين عاماً، وهي شرخُ شبابه، مع امرأةٍ واحدةٍ، كانت تكبُرُه بخمس عشرة سنة، فلم يكن زواجه بعد هذه السنوات التي أمضاها مع خديجة ـ رضي الله عنها ـ لاعتبارات دنيوية، ولكن العميان لا يستطيعون أن يبصروا القمة البعيدة المدى.

وقد حاولت الحكومة المصرية أن تتنصَّلَ من هذا الإلحاد الذي أثار عليها الرأي العام العربي والإسلامي... ومعنى ذلك أن الشيخ الغزالي وضعها في موقف الدفاع، بعد أن كانت في موقف الهجوم، وفوّت عليها فرصة فرض المبادئ الهدامة.

وكان مما قاله الشيخ الغزالي عن صلاح جاهين الشيوعي في إحدى جلسات المؤتمر الوطني ما نصه:

ـ إن تحت هذه العمامة (يقصد نفسه) رأسٌ مفكر، أيامَ كان هذا الكاتب قوّاداً لفاروق!! فطرق السادات بالمطرقة (وكان رئيس جلسة المؤتمر) وقال: كفى... كفاية يا شيخ غزالي.

ـ فردَّ الغزالي ساخطاً: دعني أتكلم!!.

وقد جمع الشيخ الغزالي حصادَ هذه المعركة في كتابه الموجه ضد الشيوعية بعنوان (معركة المصحف في العالم الإسلامي) وزادَ فردّ فيه على كلّ النقاط التي

أثيرت، والتي لم تتسع جلسات المؤتمر لاستيعابها.

ويعدُّ كتابُ الشيخ الغزالي (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) مواجهةً أخرى قوية وصريحة لهذا المبدأ الهدام، الذي عطَّلَ مسيرة المسلمين والعرب، وجعلهم يتناطحون داخلياً عِدَّة عقود، ويضاف إلى ذلك كتاباه: (الإسلام والمناهج الاشتراكية) و(الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين).

ـ كما أنَّ كتابه (قذائف الحق) يتصلُ بكثير من التحديات التي واجهتْ الإسلامَ في فترة المد الشيوعي والاشتراكي والبعثي والناصري والقومي الذي يضع الإسلام في مكانة الخصم ـ بتأثير الاستعمار ولحسابه، أو على الأقل يضعُ الإسلام في مرتبةٍ متدنّيةٍ محصورةٍ في أضيقِ نطاق، فكأنّه لاهوت محدَّدٌ بمكانٍ وزمانٍ، وليس ديناً للحياة صالحاً لكل زمان ومكان كما أراد له الله!!.

* * *

٢ ـ الشيخ الغزالي ودعاة العلمانية

واجه الشيخ الغزالي منذ أول كتاب في حياته (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) ـ القوى الاستعمارية وعملاءها، وإفرازاتها الفكرية التي كانت تنشرها في مصرَ وفي البلاد الإسلامية عن طريق سياستها التعليمية، واصطناعها لبعض الصحفيين والمثقفين والأدباء.

وفي هذا الكتاب نفسه مزجَ الشيخ الغزالي بين الأوضاع الاقتصادية والفضائل والرذائل، وتكلَّم عن موقف الاستعمار من الدين، وكيفَ أنه لا يأبه بدينه النصراني، ولا بديننا الإسلامي، لكنّه يستغلُّ دينه، برجاله ومؤسساته في ضرب ديننا، فهو يستغلُّ الدينَ فقط لتدمير الآخرين، لا لبناءِ قواعد الخير؛ بل إنّ موقفَ الاستعمار من الدين كلّه موقف خصومةٍ ظاهرةٍ، واستعمارٍ بالغٍ، لأنّ الدينَ يسعى للإخاء الإنسانيّ، وللخير العام، الذي يجبُ أن يسود شعوبَ الأرض، بيضاءَ أو سوداءَ، لكنَّ الاستعمار الأوروبي والأمريكي والروسيَّ قام على أكل الضعيف، لا الأخذ بيده، والاستعلاء على الجاهل، لا تعليمه، واستعباد الفقير، وليس تحقيق كفايته، وهذا الاستعمار يقاتل الشعوبَ المتطلعة إلى حريتها، ويجتهِدُ في حرمانها من أسباب العلم والقوة والنهوض، وقد أباد ملايينَ من البشرِ لتحقيق مآربه، وحوّل المستعمرات الشاسعة التي خضعت له، والتي تضمُّ أكثرَ من نصفِ البشر إلى حقول استغلال، واتخذ أهلَها خدماً، يعملون لغيرهم، ويكدحون لسادتهم المتطفلين الدخلاء.

وليس هذا مناط العجب، فالبرابرة والتتار من قبل فعلوا هذا بالعالم، ولولا

وجود الإسلام والحضارة الإسلامية؛ لكانت كلُّ قارات الأرض قد أصبحت عبيداً وخدماً. . . وإنّما العجب ـ كلُّ العجب ـ أن تضعَ الكنيسةُ التي تدَّعي أنها تمثّلُ الدين النصرانيَّ يدها في يد الاستعمار الأوروبي البغيض، والذي ما رأتْ البشريةُ شراً منه في القرون الخمسة الماضية.

وأعجب من ذلك كله، أن يشتغلَ لحساب هذا الاستعمار خونةٌ منّا يمهدون (للتنصير الاستعماري) ويعملون للكنيسة الاستعمارية، ويسعون إلى تفريغ الأمة من عقيدتها الإسلامية، ومن منظومتها الحضارية البناءة، القائمة على العدل المطلق لكلِّ الناس، والرحمةِ المطلقة لكلِّ الناس ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

إن هؤلاء الخونة الذين يقومون بدور الطابور الخامس للاستعمار وشقيقته الكنيسة، هم هؤلاء العلمانيون الذين قاومهم الشيخ الغزالي ـ تقريباً في كل كتبه، وبخاصة كتابه (من هنا نعلم) الذي رد فيه على كتاب خالد محمد خالد، فقد كان خالد محمد خالد ـ قبل أن يتوب الله عليه في السنوات العشر الأخيرة من عمره ـ يمضي في طريق التغريب والعلمانية، ويرى أنّ الإسلام يمكن أن يقبل القسمةَ التي قبلتها الكنيسة، فيعطي الدنيا لقيصر، ويعطي المسجد لله، وليس للهِ مكانٌ في حياة الناس الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية. . . ومن هنا ردّ الشيخ الغزالي عليه رداً علمياً موضوعياً مهذباً، حتى كشف الله العمى عن بصيرة (خالد محمد خالد) فتاب إلى الله توبةً نصوحاً معلنة قوية صريحة، تمثلت في كتابه الذي رجع فيه عن آرائه العلمانية، وهو كتاب (الإسلام دين ودولة).

ومن كتب الشيخ الغزالي التي قاومت التغريب والعلمانية كتابه (**ظلام من الغرب**)، وكتابه (**الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين**)، وكتابه (**الاستعمار أحقاد وأطماع**)، وكتاب (**دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين**)، وكتابه (**قذائف الحق**)، وكتابه (**حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي**)، وكتابه (**حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم**

المتحدة)، فضلاً عن أفكاره الموجهة ضد العلمانية والتغريب والمبثوثة في كثير من كتبه الأخرى.

* * *

ويعد موقف الشيخ محمد الغزالي ـ من قضية الكاتب المصري الهالك فرج فودة ـ أبرز مواقفه ضد العلمانيين، وهو خلاصة آرائه في الحكم الشرعي على هذه الفئة الضالّة، كما أنه يعدُّ واحداً من أهم المواقف في حياته؛ فمع أنَّ الشيخ الغزالي واحدٌ من أبطال حرية الفكر الذين يؤمنون كل الإيمان بقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وبقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦]، ويؤمن بأنه ليس من حقِّ المسلمين أن يحكموا على قلوب الناس، أن يتتبَّعوا عوراتهم، وأن يقتحموا عليهم بيوتهم، كما تفعلُ أجهزة الشرطة الثورية في العالم المتخلِّف ـ إلا أن الشيخ محمد الغزالي يؤمِنُ الإيمانَ نفسَه بأن الإسلام وطنٌ وجنسية، وليس مجرَّدَ دينٍ لاهوتي مفصول عن الوطنية والجنسية، ويؤمن ـ بالتالي ـ بأنَّ إعلانَ حربٍ على قواعد الإيمان بنشر الإلحاد والانحلال الفكري والخلقي ـ يمثِّلُ إعلانَ حربٍ على كيان المجتمع المسلم، يُهَدِّد سلامته ووجوده، وبالتالي لا يجوزُ لأبناء المجتمع المسلم أن يسكتوا إزاء هذه الحرب الإلحادية المعلنة، بل يجبُ عليهم أن يقاوِمُوها على أساس أنهم حماة التوحيد والإيمان والأخلاق، وأن الله ابتعثهم لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان السابقة المنحرفة إلى عدل الإسلام.

كما أن عليهم أن يقاوموها على أساس أنها منكر، والرسول يأمرهم أن يغيروا المنكر بالوسائل التي يستطيعون استعمالها؛ من يد، أو لسان، أو قلب.

ومع هذه الرؤية المعروفة عن الشيخ الغزالي، فقد استُدْعِيَ الشيخ من قبل المحكمة للإدلاء برأيه في قضية مقتل (فرج فودة) الذي كان يتبجَّحُ بموالاته لغير المسلمين، ولا يمرُّ يوم دون أن يتهجَّمَ على الإسلام والمسلمين، مع مجاملةِ

واضحةٍ منه لأقباط مصر، حتى يوقع بينهم وبين المسلمين إخوانهم في الوطن، وشركائهم في الحضارة والمصير. . . وقد حاول كثيرون بالحوار المهذب أن يثنوه عن طريق استعدائه للمسلمين، واستخفافه بمشاعرهم وعقائدهم، بأسلوب حافلٍ بالسخرية والكذب المفضوح، وبطريقة لم ينحدر إليها أكثر المستشرقين والكافرين بالأديان وبالإسلام. لكنه كان يدرك ـ كما زين له شيطانه ـ ضعف المسلمين، وأنهم لا حاميَ لهم، ولا لعقيدتهم، فكان يرفُضُ باستعلاء هذه المحاولات، ظاناً أنه فوق كل القوانين والأعراف!!.

ـ فكان أن قتله بعض المتطرفين، الذين سولت لهم ضمائرهم اغتصاب حقوق الدولة والقضاء. . . فذهب إلى الله ليحاسبه على ما قدمت يداه!!.

* * *

لقد طلبت المحكمةُ حضورَ الشيخ الغزالي، بناءً على طلب دفاع المتهمين، ليجيب عن أسئلة معينة وجهها إليه الدفاع عن المتهمين. ونحن نقدم هذه الأسئلة وإجاباتها لأهميتها في بيان موقف الإسلام من العلمانية والتغريب، ولتقديمها التصور الإسلامي الشمولي الصحيح النابع من الكتاب والسنّة.

لقد استدعت المحكمة الشيخ الغزالي، فسألته أسئلةً أجابَ عنها بما يلي: اسمي محمد الغزالي أحمد السقا، وسني ٧٦ سنة، وأعمل عضواً بمجمع البحوث الإسلامية، ومقيم بالدُّقي (١٠ ش قمبيز)، بميدان الدكتور سليمان ـ ثم حلف اليمين.

س: ما معلوماتك؟.

ج: أنا مستدعى من قبل الدفاع بناء على طلب المحكمة استجابة لطلب الدفاع.

س: من الدفاع: هل الإسلام دين ودولة؟ وما معنى هذه المقولة؟.

ج: الإسلام عقيدة وشريعة، وعبادات ومعاملات، وإيمان ونظام، ودين

ودولة . . . ومعنى هذه المقولة ذكرته الآية الشريفة : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩]، كما قال الله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام : ١١٤] فالإسلام دينٌ شامل منذ بدأ من خمسة عشر قرناً، وهو دين ودولة لم تنفصل فيه السلطة الزمنية عن المعاني الروحية، وقد جاءت النصوص متشابهة في إيجابها لشتى الأركان، فمثلاً : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾[البقرة : ١٨٣] و﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ ﴾ [البقرة : ١٧٨]، و﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦]، وجاءت هذه الأقوال في عبادة جنائية كالقصاص، وفي عبادة شخصية كالصيام، وفي عبادة دولية كالقتال، فالعبارة واحدة، وإن اختلفت اتجاهات التشريع، ومعروفٌ أنّ أطول آية في القرآن هي التي نزلت في الدَّين، وهو عبادة اقتصادية، والتي تبدأ بقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾[البقرة : ٢٨٢]، إلى آخر الآية، وبالإحصاء والاستقراء نجد أنّ الإسلام دينٌ للفرد والمجتمع والدولة، وأنه لم يترك شيئاً إلا وتحدث فيه، ما دام هذا الشيء يتصل بنظام الحياة وشؤون الناس.

س : من الدفاع : هل تطبيق الشريعة الإسلامية فريضة واجبة؟ .

ج : أدع الإجابة عن هذا السؤال للقرآن نفسه، فالله سبحانه وتعالى يقول لنبيه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥]، وقوله في آية أخرى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠].

س : من الدفاع : ما حكم من يجاهر برفض تطبيق الشريعة الإسلامية جحوداً أو استهزاءً؟ .

ج : الشريعة الإسلامية كانت تحكم العالم العربي والإسلامي حتى دخل الاستعمار العالمي الصليبي ـ وكرهُه للإسلامِ واضحٌ ـ فألغى أحكام الشريعة

الإسلامية، وأنواعَ القصاص، وأنواعَ التعازير، وأنواع الحدود، وحكم الناس بالهوى فيما يشاؤون، وقد صحب الاستعمار العسكري استعمارٌ ثقافي، مهمتُه جعلُ الناس يطمئنون إلى ضياع شريعتهم، وإلى تعطيل أحكام الله، دون أن يتبرموا، وأنا كأي مسلم أقرأ قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ﴾ [النور: ٢]، إلى آخر الآية فأجد الآية مقلوبة في المجتمع، وأجد القانون يقول: إذا اتفق شخصان بإرادة حرة على مواقعة هذه الجريمة فلا جريمة، وقد تسمى حُباً. . . أيقبل مسلم هذا الكلام، أو يستريح لهذا الوضع؟ وبالتالي كيف يسخرون مني إذا قلت: يجبُ إقامةُ الشريعة؟ وأعرفُ أناساً كثيرين يرون تعطيلَ الشريعة، ويجادلون في صلاحيتها، ويؤيِّدون ـ ويدّعون أنهم مسلمون ـ حكم الإعدام الذي أصدرته الحكومات الأجنبية أو الاستعمار العالمي على هذه الشريعة التي شرّفنا الله بها. إنّهم يعدمونها إعداماً، ويريدون تثبيت هذا الإعدام، ويجادلوننا باستهزاءٍ أحياناً في صلاحية الشريعة للتنفيذ، هذا كما قلت، وكما قال الله تعالى، وليس بمؤمن يقيناً من يجاهر برفضِ تطبيقِ الشريعة الإسلامية جحداً أو استهزاء. بل كما قال الله تعالى في وصف هؤلاء الناس في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

ويُعرَفُ الإنسان أنه منافقٌ من رفض حُكْمِ الله، وقد قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٤٧]، ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [النور: ٤٨ ـ ٥٠] إلى آخر الآيات في نفس الموضوع.

س: من الدفاع: ما حكم من يدعو إلى استبدال حكم الله بشريعة وضعية تحلُّ الحرامَ وتحرّمُ الحلال؟.

ج: ليس هذا بمسلم يقيناً: يقول الله تعالى في هؤلاء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ

﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

س: هل يعتبر هذا العمل عملاً كفرياً يخرِجُ صاحبَه من الملة؟.

ج: نعم، فمن رفض الحكم بما أنزل الله جحداً واستهزاءً هو بلا شك يخرج من الملة.

س: من الدفاع: فما حكم المسلم الذي يأتي هذا الفعلَ الكفريَّ، أو القول الكفري عن تعمدٍ وعلمٍ بمعانيه ومراميه؟.

ج: مهمتي الشخصية هي أن أشرحَ له كعالم، وأدحضَ شبهاته، وأبين له الحقيقة، وليست مهمتي كداعية إلى الله أن أتلمَّسَ العيوب للناس، ولست أفرحُ بإيقاع أقدامهم في الحبائل والشباك... وإنّما أنا طبيبٌ أعالج المرضى، وأريدُ أن أنقذَهم من الجراثيم التي تفتك بهم. فإذا كان عنيداً يرفضُ كلَّ ما أقول، ويأبى إلا تكذيبَ الله ورسوله ﷺ، فلا أستطيع أن أقول إنه مؤمن.

س: من الدفاع: هل يصح لإنسان نطق بالشهادتين الادعاء بالإسلام، مع المجاهرة برفض تطبيق الشريعة الإسلامية، والدعوى إلى استبدال شرع الله بشرائع الطواغيت من البشر؟.

ج: أولاً يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، بل إن بعض الناس كان يحلف أنه مؤمن، ولكن ميله للكفار وجبنه عن مقاتلتهم والدفاع عن الإسلام، نفى الدين عنه، قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦ ـ ٥٧]، ومعنى الآية أنّ قولَهم إنّهم مؤمنون مع تكذيب أعمالهم لهم لا يقبلُ، والإيمانُ باتفاق العلماء قولٌ وعقيدةٌ وعملٌ. ثم ألفتُ النظرَ إلى أنَّ ديننا اسمه الإسلام... أي الخضوع لله، ومعنى ذلك أنَّ إبليس كان يعلم أن الله حق ويجادله... فرفضُ الأمرِ والنهيِ يخرِجُ الإنسانَ عن الملة.

س: من الدفاع: هل يعتبر من يأتي هذه الأفعال الكفرية، والأقوال الكفرية مبدّلاً لدينه مفارقاً للجماعة؟.

ج: نعم يعتبر مرتداً عن الإسلام.

س: من الدفاع: ما حكم هذا المرتد شرعاً؟.

ج: حكم المرتد في الشريعة واضح، وأنا لي رأي خاص. فالرأي العام في الإسلام أنه مخطئ، وأن الارتداد قد يكون له أسباب، فيمكن أن يكون لإنسان شبهةٌ ولا يحسِنُ فهمَ الدليل... فأنا مهمتي كشف الشبهة وبيان الدليل. وقد يرى الحاكم بدل أن يقتل أن يسجن سجناً مؤبداً لأمر ما. وعندما كان الجدالُ بين النبي ﷺ وزعماء مكة في صلح الحديبية فقد عرض أمر على الرسول ﷺ. وقد انتهى الرسول ﷺ إلى أن من ترك المدينة وجاء لمكة لا يمنعه الرسول ﷺ، ومن ترك مكة وذهب إلى المدينة يمنعه الرسول ﷺ، وقد سأل الصحابة الرسول ﷺ في ذلك فقال لهم: «شر وأريد أن أبعده عنكم». ورأيي الخاص لو أن واحداً من الناس ارتد لا أتعقبه، ولكن بقاءه في المجتمع جرثومة ينفث سمومه، ويحض الناس على ترك الإسلام، فيجب على الحاكم أن يقتله.

س: من الدفاع: قررتم فضيلتكم أنه قد يكون صاحب المقولة الكفرية لديه شبهة أو لم تبلغه الحجة. فماذا إذا بلغته الحجة؟.

ج: هذا ككفر الفراعنة... جحدوا وجود الله، وعصوا موسى، وهذا يكون ارتداداً صريحاً حاسماً.

س: من الدفاع: من الذي يملك إيقاعَ الحدِّ على المرتد المستوجب قتله؟.

ج: المفروض أنَّ جهاز القضاء هو الذي يقوم بهذه المهمة، فهو الذي يقيم الحدود، ويقيمُ التعازير، ويحكم بالقصاص، ولا يكون ذلك لآحاد الناس حتى لا تكون فوضى.

س: من الدفاع: فماذا لو كان القانون لا يعاقِبُ على الردَّة، والقضاء لا يوقع الحدود؟.

ج: هذا عيب القضاء، وعيب المسؤولين عنه، والقانون معيب.

س: من الدفاع: ماذا لو أن القانون المطبق لا يعاقب... هل يبقى الحدّ على أصله من وجوب الإيقاع؟.

ج: حكم الله لا يلغيه أحد... والحدُّ واجبُ الإيقاع.

س: من الدفاع: ماذا لو أوقعه فرد من آحاد الأمة، وهل يعتبر مرتكباً جريمة أو مفتئتاً على السلطة؟.

ج: يعتبر مفتئتاً على السلطة، وأدّى ما يجبُ أن تقومَ به السلطة.

س: من الدفاع: هل هذا المفتئت على السلطة بفرض أنّ السلطة توقع حدّاً، هل له عقوبة في الإسلام؟.

ج: أنا لا أذكر أن له عقوبة في الإسلام.

* * *

وهكذا كان موقف الشيخ الغزالي في شهادته أمام المحكمة في قضية (فرج فودة) موقفاً صريحاً جريئاً لا يخشى في الحق لومة لائم.

ولقد زلزلت الأرض زلزالها بعد شهادة الشيخ، وثارت ثائرة كل الحاقدين على الإسلام، والخائفين منه، والمبغضين له، وتكالبت الأقلام المسعورة والمأجورة على الشيخ العظيم، وانتهزها الشيوعيون الملحدون، والمتغرّبون والعلمانيون والموتورون، انتهزوها فرصةً لينهشوا من لحم الشيخ، ناسين أن لحمه سم زعاف.

وسالت أنهار الصحف بالكلام عن الشهادة والشاهد، ولم يعبأ الشيخ بما قيل ويقال.

حتى بعض الأقبـاط من دعاة الفتنـة الطائفيـة مثل غالي شـكري دخـل في المعركة، وهاجمَ الشيخ بوقاحة. مع أنهم كانوا من قبل لا يجترئون على أن يمسوا بكلمةٍ علماءَ الإسلام... لكنَّ الأحوالَ تغيرت، وأصبح المسلمون في وضع ذليل.

وقد ذهب وزير مسؤول إلى الشيخ في بيته ملحاً في الضغط عليه، ليصدر تصريحاً أو بياناً، أو يكتب كلمة ـ أو نحو ذلك مما يروق له ـ يفسر به موقفه بما يشبه التراجع عما قاله في الشهادة.

لكن الشيخ أبى إلا أن يثبت على موقفه، وظلَّ كالصخرة العاتية، التي تحطمت عليها كل تلك المحاولات، ولم تجدِ فتيلاً.

ولما ألحَّ هذا المسؤول على الشيخ، وكرَّرَ عليه القول مرة بعد مرة، قال له في صراحة وجلاء: «أنا لم أكتب مقالاً في صحيفة، ولا ألقيتُ خطبةً في جامع، ولا محاضرةً في جمعية، ولكنّي استُدعيتُ للشهادة أمام محكمة، فشهدتُ بما أعتقدُ أنّه الحق الذي أدينُ الله به وألقاه عليه، فإذا كان في شهادتي بعض الغموض، فلتدعُني المحكمة مرةً أخرى، وأنا أشرح لها موقفي».

وبهذا حسم الأمر، ولم يعد هناك مجال للقيل والقال.

ـ ولكنّ الصحافة العلمانية والإلحادية لم تصمت، وخصوصاً بعد أن انضم إلى شهادة الشيخ: شهادة الدكتور محمد مزروعة (رئيس قسم العقائد والأديان بكلية أصول الدين بالأزهر) والتي كانت أشد من شهادة الشيخ، والتي اتهم فيها الشـاهد فرج فودة بالردة صراحـة، وقدّمَ من كتبـه ومقالاته ما يدل على ذلـك للمحكمة.

ومع ذلك فقد كان هناك من آثـروا الحوار الأخلاقي، فاحترمهم الشـيخ وتجاوب معهم، ومن هـؤلاء الأستاذ صلاح منتصر، الذي وجَّه للشـيخ بعض الأسئلة المتصلة بالردة، وطلب منه الإجابة عنها، ففعل الشيخ على النحو الآتي:

١ ـ أي الدرجتين أعلى في المعصية: الكافر أو المرتد؟.

جواب: الكافر أقلُّ سوءاً من المرتد. فإنني قد أشترك في عمل تجاري مثلاً مع كافر بالإسلام، يهودياً كان أو نصرانياً، وفي كلتا الحالتين يجب البرّ بهم، وبذل الود لهم. أمّا المرتد فهو كخائن الوطن منبوذ مكروه، وقد استعمر الأوروبيون أرضنا، ومحوا شرائعنا، وشعائرنا، فمن انضمَّ إليهم في عدوانهم... فكيف نصادقه؟.

٢ ـ متى يكون الفرد كافراً، ومتى يكون مرتداً؟.

جواب: الكافر امرؤ خالي البال من تعاليم الإسلام. لعلها لم تبلغه أو بلغته ولم يقتنع بها. ولا سبيل لنا عليه، إلا إذا اعتدى علينا.

أما المرتد فهو رجل كان منا، وعرف ما نحن عليه، ثم رأى لمأرب خاص، أن ينضم إلى خصومنا، وأن يؤيدهم بما يستطيع. أي أنّه خائنٌ غادِرٌ. أما إن كانت لديه شبهة عقلية، فلا بدّ من إزالة شبهته، ومحو ما يتعلّقُ به من أوهام، ولو ظل سنين على قيد الحياة.

٣ ـ من الذي يملك تكفير فرد أو الحكم عليه بالردة؟.

جواب: أهل الذكر وحدهم... أعني الراسخين في العلم، فإنّ اتهام فردٍ بالكفر جريمة، والإسلام دينٌ مضبوط التعاليم. فمن استباحَ الخمر مثلاً، وسَخِرَ من حرمتِها، أو مَنْ ترك الصلاة جاحِداً واستهزأ بشريعتها، فليس بمسلم، بل هو ناقضٌ للمجتمع، ومنكرٌ للوحي، وخارج على الأمة.

وسلطة الاتهام بالكفر محددة، وليست كلأً مباحاً لأي إنسان.

٤ ـ هل يحتاج الأمر السابق إلى فقهاء ودعاة دارسين، وبطريقة علنية واضحة، أم يستطيعه أي فرد أو جماعة، وبطريقة سرية مغلقة؟.

جواب: قلنا: إن الفقهاء الثقات وحدهم هم مصدر الفتوى، ورأيهم يكون

واضحاً ومعلناً، إلا إذا كان الإسلام مضطهداً، وحرية العمل به مصادرة. إنّ جو الحرية الرحب هو الذي يستطاع الأخذ والرد فيه، ولن تكون الحرية لطرف واحد بداهة، بل تُضْمَنُ الحرية لجميع الأطراف يقولون ما لديهم في أمان.

٥ ـ هناك بعض الدارسين الذين يشككون في حد الردة... ويقولون إنه ليس موجوداً صراحة في القرآن الكريم، فهل هذا صحيح؟.

جواب: نعم لم يرد في القرآن الكريم قتلُ المرتد، وإنما وردت بذلك السنن الصحاح، وعندي أنَّ جريمة الردة متفاوتةُ السوءِ والخطر، وقد تستحق القتل، إذا ساوت ما نسميه الآن الخيانة العظمى، أو ما نسميه الخروجَ المسلح على الدولة، وقد تكونُ شبهةً عارضة، يكتفي فيها بالتوبة النصوح، وأمام القضاء تعرَفُ الحقيقة، ويتحدد العقاب العدل، ويوزن خطأ كل فرد!!.

٦ ـ هل يتعارض ما ورد في القرآن الكريم من اعتبار الحكم على إسلام الفرد من اختصاص الحق سبحانه وتعالى، مع القول بحق أي فرد أو جماعة في تكفير فرد أو الحكم بأنه مرتد؟.

جواب: إنَّ قلوبَ الناس إلى الله بيقين. ولكن لمسالكهم حدوداً وضوابط من وضع الله ذاته، وإلا سرت الفوضى بين الناس. فمن يدعو إلى ترك العلاقات الجنسية حرة، ويماري في جريمة الزنى وعقوبتها، لا يمكن اعتباره مسلماً؛ لأنه مخاصِمٌ لحكم الله، وخارجٌ عليه. ولذلك قال في ضرورة الطاعة التامة: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]. فما العمل إذا لم يتب ويقم الصلاة ويؤت الزكاة؟ حكم الله واضح[1]... أي أنه مرتد عن الإسلام يجب إقامة الحد عليه من أولي الأمر، فإذا لم يفعلوا، وتواطئوا مع

(١) وردت هذه المحاضرة ـ بخاصة في جريدة (الأهرام) القاهرية، وقد سجل شهادة الشيخ الغزالي حرفياً الأستاذ (أحمد السيوفي) في كتابه (محاكمة المرتدين)، ونقلها عنه الشيخ الدكتور (يوسف القرضاوي) في كتابه (الشيخ الغزالي كما عرفته)، (صفحات ٢٧٠ ـ ٢٧٩)، طبع القاهرة.

الملحدين، كان هذا نذيراً بالخراب والفوضى العامة!!.

وهكذا كان موقف الشيخ الغزالي قوياً رادعاً في مواجهة تيار العلمانية والتغريب الثقافي، الذي يتظاهَرَ بالإسلام، ويخفي الخيانة له، والعمالة لأعدائه.

وكانت شهادة الشيخ الغزالي ضِدَّ (فرج فودة) المستهزئ بالإسلام والمستخف بالمسلمين ـ لطمةً للمتغربين والعلمانيين جميعاً. . . !!

وكان مقتل (فرج فودة) والضجيج الذي وقع حوله امتحاناً نجح فيه الشيخ الغزالي، وذكر المسلمين بالعلماء العاملين، الذين كانوا لا يخشون إلا الله، ولو كره الكافرون!!.

* * *

٣ ـ الشيخ الغزالي ودعاة التنصير

ليس دعاة التنصير بعيدين عن دعاة العلمانية والتغريب، بل ثبت أنَّ وظيفةَ الآخرين هي حرث الأرض، وتمهيدها كي يزرعها الأولون بالتثليث، وصكوك الغفران، والفداء، والخلاص!!.

وكان الشيخ الغزالي يقظاً في مواجهة التنصير الخفي، والظاهر، والمباشر، وغير المباشر، وكان كتابه الرائع: **(التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام)** دحضاً لكثير من الافتراءات التي يروّجُ لها عملاء التنصير، المُدْعمون من مجلس الكنائس العالمي، المرتبط بالمخابرات الأمريكية.

كما كان الكتاب إعلاءً لتاريخ التسامح الإسلامي بخاصة، والدعوة الإسلامية بعامة، وفضحاً لتاريخ الكنيسة الأسود، الملطخ بالدماء، ليس ضد المسلمين وحدهم، وإنما ضد كل الطوائف المسيحية المخالفة، وضد الأفراد الذين خالفوا الكنيسة عبر التاريخ في رأي أو فكر، وقد كشف الشيخ الغزالي ارتباطَ تاريخ الكنيسة بالإقطاعيين والرجعيين ومحاكم التفتيش، وملوكِ التعذيبِ طيلة عشرة قرون، حتى قامت حركات الإصلاح والنهضة والتنوير ضد الكنيسة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، متأثرة بالروح والقيم الإسلامية.

كما قام الغزالي بفضح دور الكنيسة في الحروب الصليبية الهمجية، التي أسالت دماءَ المسلمين أنهاراً في شوارع الرها وأنطاكية وطرابلس، وبيت المقدس، وفي قرى ومدنٍ كثيرة أخرى في الشام ومصر.

وبالإضافة إلى الكتاب السابق كان كتاب الشيخ الغزالي: **(صيحة تحذير من دعاة التنصير)** رداً فكرياً على العقائد النصرانية الأساسية التي صنعها شاءول (بولس) والتي حجبت نصرانية المسيح الإلٰهية عن البشرية فيما يبدو إلى الأبد،

فلا أمل في العودة إلى نصرانية المسيح، كما أنه لا أمل في الحصول على إنجيل المسيح، الذي يمكن أن ينسَبَ إليه بدل الأناجيل الأربعة، التي تمثل مذكرات شخصية، قد تتفق، وقد تختلف، مع ما أنزله الله على المسيح ـ عليه الصلاة والسلام.

ومن المعروف أنّه لا يوجد فرق كبير بيننا وبين النصارى في شخص مريم عليها السلام، فنحنُ نؤمِنُ بأنها صدِّيقة، وبأنها بشر، وبأنها عذراء طاهرة صالحة تقية، تعهدها الله برعاية خاصة، وفضلها تفضيلاً عظيماً على نساء العالمين.

والفرق بيننا وبين رجال الكنيسة يتمثل أول ما يتمثل في شخص المسيح عليه السلام، فنحن نؤمن بأنه ﴿رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥]، ولا نرى أنه إلـه، ولا ابن إلـه، ولا أنه يجلس إلى جوار أبيه في السماء، (وليس هنا مجال استقصاء خلافاتنا مع الكنيسة).

ونحن نؤمن بأنّ النصرانيةَ الصحيحةَ التي تنزّلت على عيسى تنزلت بما نؤمن به، وأن فِرقاً نصرانيةً كثيرة كانت على رأينا هذا، لكنها ووجهت بحرب إبادة.

بل نحن نؤمنُ بأنّ الأغلبيةَ الساحقةَ من أعضاء مجمع (نيقية) كانت على عقيدة التوحيد، وعلى رأس هؤلاء العالم المصري أريوس (إمام الأريسيين). . . فمن بين المجتمعين في المؤتمر الذي بلغ عددهم (٢٠٤٨) عضواً. . . وقّع على قرار التثليث (٣١٨) عضواً ـ فقط ـ هم الذين رضخوا لرأي الحاكم الوثني سابقاً قسطنطين، ولصديقه كاهن روما، وخافوا تهديداته وإجراءاته التي كان من بينها قتل أريوس، وتشريد بقية الموحِّدين.

وكان هذا العام ٣٢٥م ـ كما يقول أستاذنا الدكتور أحمد شلبي ـ في كتابه حول (المسيحية) أول تاريخ يتخذ فيه قرار ضد التوحيد ويحكم بألوهية المسيح، ونحن نؤمن كذلك بأن الدراسة العلمية الموضوعية تنتهي إلى ما نؤمن به، بل هي

النتيجة التي انتهى إليها كثير من المؤرخين النصارى المنصفين. . . فالواحد واحد. . . والثلاثة ثلاثة، ولا يمكن أن يكون الثلاثة واحداً، إلا إذا كانوا أجزاء في واحد. . . وسيكون في كل جزء نقص يمنعه من أن يكون وحده واحداً. . . !!

وأي جدل حول هذه المسلَّمة البديهية هو نوع من السفسطة التبريرية التي تستحق أن تقرع بقول الله تعالى:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

يقول أستاذنا الشيخ محمد الغزالي:

«إن قضية الثالوث والفداء لا تعرفها أديان السماء، وما سمع بها عيسى عليه السلام، والنصارى الأولون كانوا على عقيدة التوحيد، وظاهرٌ أن نفراً من شياطين الجن والإنس حاولوا البعد عن هذا المعتقد الصالح، وأرادوا أن يخلطوا بين الوحي النازل على عيسى، وبين تعاليم أديان أرضية قديمة، عرفت في وثنيات الهنود والمصريين وغيرهم، ونشب عراك شديد بين المحافظين والمحرّفين، ظل قرابة أربعة قرون، انتصرت فيه للأسف العقائد المغشوشة، والمبادئ المعلولة، واستخفى من قلوب الناس التوحيد الخالص.

وقد أعان السلطان الروماني على بلوغ هذه النتيجة الرديئة، فإذا الواحد ثلاثة، وإذا المعابدُ مذابحُ وقرابين، وإذا رجال الدين وسطاء يغفرون الذنوب، إذا المسؤولية الشخصية تبتعدُ، وإذا أحكام إلـهية كثيرة تتوارى، وإذا تحريفٌ واسع النطاق يدخل في تراث عيسى عليه السلام.

وما يقول الشيخ محمد الغزالي ـ الداعية المسلم ـ يلتقي تماماً مع ما يردده، ويتحدث به، ويؤلفه في كتبه، ويلقيه في محاضرات جامعية بجامعات باريس وفرنسة وفي محاضرات عامة، ويكتبه في بحوث ومؤتمرات ـ العالِمُ المسيحي المتخصص الدكتور شارل جنيبر. . . يقول الدكتور شارل جنيبر في كتابه (المسيحية نشأتها وتطورها):

«والنتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين هي: أنّ عيسى لم يدَّعِ قط أنه هو المسيح المنتظر. ولم يقل عن نفسه إنه (ابن الله)، وذلك تعبير لم يكن في الواقع ليمثل - بالنسبة إلى اليهود - سوى خطأ لغوي فاحش، وضرب من ضروب السفه في الدين، كذلك لا يسمحُ لنا أيُّ نص من نصوص الأناجيل بإطلاق تعبير (ابن الله) على عيسى، فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحيين الذي تأثروا بالثقافة اليونانية، إنها اللغة التي استخدمها القديس (بولس) كما استخدمها مؤلف الإنجيل الرابع، وقد وجد فيها معاني عميقة، وعلى قدرٍ كاف من الوضوح بالنسبة إليهما.

ولو أراد - أي عيسى - أن يتخذ لقباً، لاتخذ لقب (ابن داود) المعروف بين بني إسرائيل، والذي كانوا يعتبرونه لقب المنقذ المنتظر، ولكنه لم يفعل»[1].

لكن: كيف وقع هذا الانحرافُ الكبير، بل لعلّه أكبرَ الأخطاءِ في تاريخ العقائد والأفكار؟.

إنه لم يقع في مجمع (نيقية) سنة ٣٢٥م الذي تقرر فيه اعتماد العقيدة الكنسية في ظل التصوّر المحدَّد بالأناجيل المنتقاة على النحو المعروف اليوم؛ بل إنه فرض بالقرار السياسي والعسكري في هذا المجمع، أما وقوعه فكان قبل ذلك بأكثر من قرنين ونصف القرن على يد المنشئ الحقيقي لهذه العقيدة، والذي يتحملُ وزرَها التاريخيّ والديني وهو اليهودي شاءول (بولس).

إن بولس هو منشئ هذا الدين، وهو الذي يقف وراء الأناجيل بعامة ووراء الإنجيل الوحيد، الذي نصَّ بصراحةً واضحةً على ألوهية المسيح عيسى، وهو إنجيل يوحنا؛ حيث نقل يوحنا في إنجيله عن عيسى مقولات (أنا والأب واحد)، (الذي رآني فقد رأى الأب)، (أنا في الأب والأب فيَّ) ويوحنا هو الوحيد أيضاً

---

(١) شارل جنيبر، المسيحية نشأتها وتطورها، نشر وترجمة المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ص٣٩.

الذي ذكر أن عيسى أخبر أنه سيرسل (الفارقليط) ـ المعزّي، أو الروح القدس حسب اعتقاد النصارى، ليسدد الكنيسة ويرشدها من بعده. . !!

وليس يوحنا هذا من حواريي المسيح، بل هو كما يذكرُ كاتبُ الموسوعة البريطانية (يوحنا آخر) كان يعيشُ في أفسوس، «ومن داخل الإنجيل يفهم أنه كتبه حواري محبوب مجهول الاسم، وبما أن الشواهد الداخلية، والخارجية مشكوكٌ فيها، فإنَّ الفرضية المطروحةَ لهذا العمل هي أنَّ إنجيلَ يوحنا ورسائله حررت في مكان ما في الشرق، وربما في أفسوس، كإنتاج لمدرسة أو دائرة متأثرة بيوحنا في نهاية القرن الأول الميلادي».

ويقول موريس بوكاي حول مؤلف إنجيل يوحنا: «كل شيء يدفع إلى الاعتقاد بأنَّ النص المنشور حالياً ينتمي إلى أكثر من كاتب واحد[1]. . . وبولس يقف من ورائهم جميعاً»!! وقد وردَ في الجزء الخامس من (دائرة المعارف الفرنسية) أنّ كتب العهد الجديد المعتمدة هي من عمل (بولس) أو من عمل أتباعه، وليست الأسماء الموضوعة عليها إلا أسماء مستعارة.

لقد كان (بولس) عليماً بالفلسفة الإغريقية التي تمثلها مدرسة الإسكندرية، وقد نجح (بولس) في أن يضعَ البذورَ التي نقل بها المسيحية من الوحدانية إلى التثليث، ووافقت فكرةَ التثليثِ الجماهيرُ ذات الخلفية الوثنية، واستطاع بعضُ أتباع بولس أن يصيروا من آباء الكنيسة وذوي الرأي فيها، فتم الامتزاج بين آراء مدرسة الإسكندرية المؤمنة بالفلسفة الإغريقية، وبين المسيحية الجديدة[2].

لقد كان أعظمَ خطأ وقع في تاريخ العقائد والرسالات السماوية، ولئن كانت الأديان السابقة تتعرَّضُ للتحريف، ثم يرسل الله الرسل، فيزيحون الأتربة

---

(١) محمد السعدي، حول موثوقية الأناجيل: ١١/ ٢١، منشورات رسالة الجهاد ـ طرابلس، ليبية، ط١٩٨٥م: ١١/ ٢١، ١٩٨٥م (نقلاً عنه).

(٢) أحمد شلبي، المسيحية، ص١٣٣، نشر مكتبة النهضة المصرية.

عنها، ويعيدون إليها نقاءَها ووحدانيتها، فإنّ المشكلةَ مع النصرانية الكنسية صعبة ومعقدة، وذلك لأمرين خطيرين:

أولهما: أن (بولس)، وهو رجل في غاية الدهاء والمكر، قد نجح في القضاء على نصرانية المسيح البسيطة الطيبة، القائمة على الفطرة والزهد والأخلاق الكريمة، وأنشأ لدينِه الجديدِ مؤسسةً تعتَبرُ من أقوى المؤسسات الفكرية والعقائدية في التاريخ البشري، وهي الكنيسة التي تحصُرُ كلَّ رسالاتها في حماية آراء بولس وأفكاره المبثوثة في رسائله، وفي إنجيل يوحنا بخاصة، ولم تحاول الكنيسة التي أنشأها (بولس) أن تبذل بعض جهدها وطاقتها البحثية في كشف الطبيعة الصحيحة لدين المسيح عليه السلام، ولا لتعاليمه، قبل أن يهيمن بولس على النصرانية المسكينة، بل إن الموحدين النصارى في القرون الثلاثة الأولى قبل مجمع (نيقية) يخضعون لتعتيم شديد، ولا يكادون يفوزون بنصيب من الدراسة المنصفة.

أما الأمر الخطير الثاني، فقد تمثل في ذلك الرفض العقلي والحضاري الأوروبي لكنيسة بولس المعقدة اللامعقولة. . . والمأساة الكبرى أن هذا الرفض لم يتجه لنقد (المرحلة البولسية) بل اتجه إلى رفض الدين كله. دين عيسى (عليه السلام) ودين بولس. . . بل وكل الأديان السابقة. . . وحتى الدين الجديد، الذي جاء مصححاً، وهو الإسلام، فقد تم رفضه، لأنّ الكنيسةَ كانت على وعي بخطورته ـ فهي تشوهه، ولا تسمح بوصوله صحيحاً إلى العقل الأوروبي، واتجه العقل الأوروبي ـ في ظلها ـ إلى المادية والإلحاد والعلمانية التي تحصر الدين في داخل هذه المؤسسة اللاهوتية (الكنيسة)، ولا تسمح بوجوده في جوانب الحياة المعاشة اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو ثقافية.

والغريب أن الكنيسة كانت تشارك الملوك في السياسة، وتنفرد هي بصياغة الحياة والعقول في العصور الوسطى، فالكنيسة الغربية قد رضيتْ بهذا الوضع، واستسلمتْ لهذه النتيجة، وقبلتْ أن تتعاونَ مع قيادات الحياة الجديدة، فأصبحتْ طليعةَ الاستعمار، والشريكَ المتضامن مع العلمانيين، وحكامِ الفسادِ والانحلالِ،

الذين لا تربطهم بالله صلة، ولا يهمهم من الدين ورجاله إلا أن يساعدوهم على تحقيق أهدافهم اللاإنسانية واللاأخلاقية ضد الشعوب المستضعفة، وضد المسلمين بخاصة! ومرة أخرى تنجحُ الكنيسةُ في ركوبِ الموجةِ، وتغييرِ الحقيقةِ، وبيع المبادئ، والتضحية بالنصرانية الصحيحة، وبالدينِ الحق، وذلك في سبيل الحفاظ على مكانتِها وعلى مكاسبها الدنيوية البحتة!!

* * *

يقول الشيخ الغزالي آسفاً من هذا الخطأ التاريخي والعقدي الكنسي الكبير، ومن الجهود التنصيرية الموجهة للمسلمين مع أنهم حملة دين التوحيد المقدِّرِ لله حقَّ قدرِه، والمنصفِ لكلِّ الأنبياء، والمدافع عنهم . . . يقول:

بين يديّ كتاب من ٩٠٠ صفحة مطبوع بحروف صغيرة[١]، فلو أن الكتاب طبع بالحروف المعتادة لبلغ ثلاثة مجلدات كبيرة، إنه سجل للدراسات والمحاورات والمقترحات والآراء والنتائج التي انتهى إليها آخر المؤتمرات التبشيرية في (كولورادو) في الولايات المتحدة.

وقد تخصَّص هذا المؤتمر، في بحث قضية واحدةٍ، هي أمثل الطرق لتنصير المسلمين، والقضاء على دينهم، وقد جمعَ لهذه الغاية ألف مليون دولار، لعلها الخطوة الأولى في مشوارٍ طويلٍ.

الحق أني شعرت بالكآبة والأسف، وتساءلتُ: ماذا يطلبُ هؤلاء الكهنة المجتمعون على أخسِّ غرضٍ؟.

إننا نحن المسلمين نقدِّرُ اللهَ حقَّ قدره! ونقضي الليالي والأيام في تسبيحه وتحميده . . . وقد قسّمنا الزمان قسمةً رتيبة، فبين الحين والحين تحمل الرياحُ الأربعُ صيحاتِ المؤذنين: الله أكبر الله أكبر!! ثم نهرع إلى المساجد، ملبين

---

(١) نشر هذا الكتاب المعهد العالمي للفكر الإسلامي. (الناشر)

النداء، محيين ربنا بالركوع والسجود، والقيام والقعود، وضحكتُ وأنا أتساءل مستغرباً: أنحنُ كافرون بالله. . . ؟

ورجعتُ إلى صفحاتِ الكتاب الحافلِ بالمكر والإفكِ، إنّه يعرِفُ عقائدنا معرفةً حسنةً، وهو يريدُ أن نضمَّ إلى عبادة الله، عبادة إلٰهين آخرين، هما الابن والروح القدس! ويصفُنا بأننا أعداء المسيح عيسى ابن مريم!.

أصحيحٌ أننا أعداء عيسى؟ إننا وقَّرْناه وكرّمناه، وبرّأنا أمه وفضلناها على نساء العالمين، فماذا نلام عليه؟ أو ماذا يؤخَذُ علينا؟ إنكم ـ يا رجال الكنائس المجتمعين في مؤتمركم هذا ـ صادقتم يهود، وبسطتم أيديكم إليهم بالود والنصر، ولم يخفَ ضغنكم ذرة على الإسلام ونبيه! وتذكرت كلمة (برناردشو): لقد طبعَ رجالُ الكنيسة في القرون الوسطى دينَ الإسلام بطابعٍ أسودَ حالك، إما جهلاً وإما تعصباً، إنهم في الحقيقة كانوا مسوقين بإحساسٍ واحدٍ، هو بغض محمد ودينهِ، وهم يقولون: إنّ محمداً عدو للمسيح، ولقد درستُ سيرة محمد، الرجل العجيب، وفي رأيي أنه بعيدٌ جداً عن أن يكون عدواً للمسيح، وإنما ينبغي أن يُدْعى منقذ البشرية!!.

هذه كلمة حق هُدِي إليها رجل من رجال الدنيا، وضلَّ عنها المتعصبون من رجال الدين!!.

ولقد فكرتُ في الحضارة الحديثة التي تسودُ العالم بكشوفها العلمية الرائعة. . . إن الذي صنع هذه الحضارة وحملها هم رجال من طراز (برناردشو)، أما رجال الكنائس المؤتمرون في الولايات المتحدة، فهم إخوة وأبناء الذين ذبحوا العلماء، وقيّدوا المدنية، وكرهوا الفكر والحرية، ولم تستطع أوروبة حسمَ شرورهم إلا بعد أن حكمت حكماً لا رجعة فيه، بإقصائهم عن الدولة، والاقتصاد، والسياسة، والعلم، والمجتمع، وكل نشاط له وزن.

إنهم الآن يعودون في ظل مدنية قتلوا رجالها الأوائل ـ حاملين لواء الكراهية

للإسلام وحده! عاملين مع قوى الشر، خادمين للاستعمار القائم على العنصرية والفساد. . . !! إنّ هذه القطعان من الكهنة، تستأنف غرائزَ التعصب القديم، حين تستأنفُ الحرب، وتشن غارة جديدة على الإسلام.

ماذا تريدون ممن يعبدُ الله الواحد؟ تقولون: اعبدْ معه يسوع ابنه الوحيد، ثم ضم إلى يسوعٍ الإلـه الثالثَ روحَ القدس.

إننا نعرف هذه القصة وننكرُها! إنَّ اللهَ الواحد هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبر لكل شيء (ما أعانه أحدٌ، وهو يبدعُ السماوات والأرض) لأنه لا يحتاج إلى معين، إنَّ ما عداه فقيرٌ إليه، عانٍ بين يديه!!.

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٨ ـ ٧٠].

سألت نفسي: ما وضع هذه الآلهة الأخرى مع الله؟ أهي كبطانة المُغَنِّي تردّدُ ما يقول وحسب، إن البطانة مرتبة أخرى دون الأصل، وقد تطرَدُ، ويجاءُ بغيرها، إن هي أساءتْ الترجيعَ، أو شذَّتْ عن النغم!!.

ما علاقتي أنا بأفراد هذا الثالوث؟ هل الأب خلق المخ، وخلق الابن الصدر، وخلق الروح القدس البطن والأطراف؟ أجبتُ: إن الحياة السارية في الكيان كله واحدة، لا تصدر إلا عن واحد، يشرِفُ عليها من ذؤابة الرأس إلى أخمص القدم، ويوزع عمل الأجهزة الرئيسية على أجزاء الجسم علواً وسفلاً.

وأنا لهذا الإلـه الواحد أسجدُ وأشكرُ، وأحيَى في دنياي، وأستعدّ للقائه كي يجزيَني على حسن معرفتي!.

ويعجبُ الشيخ الغزالي من تناقض رجال الكنيسة، الذين يتركون أوروبة في أوحالها، ويتربصون بالإسلام. . . قائلاً:

إن أوروبة وأمريكة مع تقدمهما العلمي ما أحسنتا الصلة بالله، ولا اكترثتا باليوم الآخر، ولا احترمتا جنةً ولا ناراً، إنهم عُبّاد (فانون) في متاع الدنيا وحدها، فهلاَّ التفت الكهنة المؤتمرون إلى ما يسود مجتمعاتهم من مادية طاغية فقاوموها، هلاَّ أصلحوا أنفسهم قبل أن يتجهوا إلينا بالإصلاح... أعني الإفساد!!.

ما أحسب غرائز السوء انطلقت في عصر انطلاقها في هذه الأيام النحسات الكارهة للوحي، الناقمة على مواريث السماء... إن كهان أوروبة وأمريكة يبتعدون عن هذا الواقع الحافل بالنُذر، ويكرّسون أوقاتهم لشيءٍ واحدٍ هو حرب محمد ﷺ وأمته، وحرب التوحيد الخالص، ونصرة عقيدة التثليث...!! ونحو هذه الغاية يتسامحون مع الهنادك واليهود وكل ذي نحلةٍ شاردةٍ، المهم هو القضاء على الإسلام وحده...!!

* * *

وهكذا فضح الشيخ الغزالي دعاةَ التنصير، وعرّى موقف الكنيسة اللاأخلاقي، فلو كان هؤلاء أو أولئك من أنصار المسيح حقاً، لوضعوا أيديهم في يد المسلمين ضد اليهود الذين يرون في المسيح وأمه رأياً فاحشاً، وضد العلمانيين والماديين والانحلاليين، الذين يرفضون وجود الدين في الحياة، ويحصرونه في زوايا المعابد، وضد الأديان الوثنية الموجودة في الهند والصين ونيبال، التي لا تؤمنُ باللهِ ولا بالأنبياء!!.

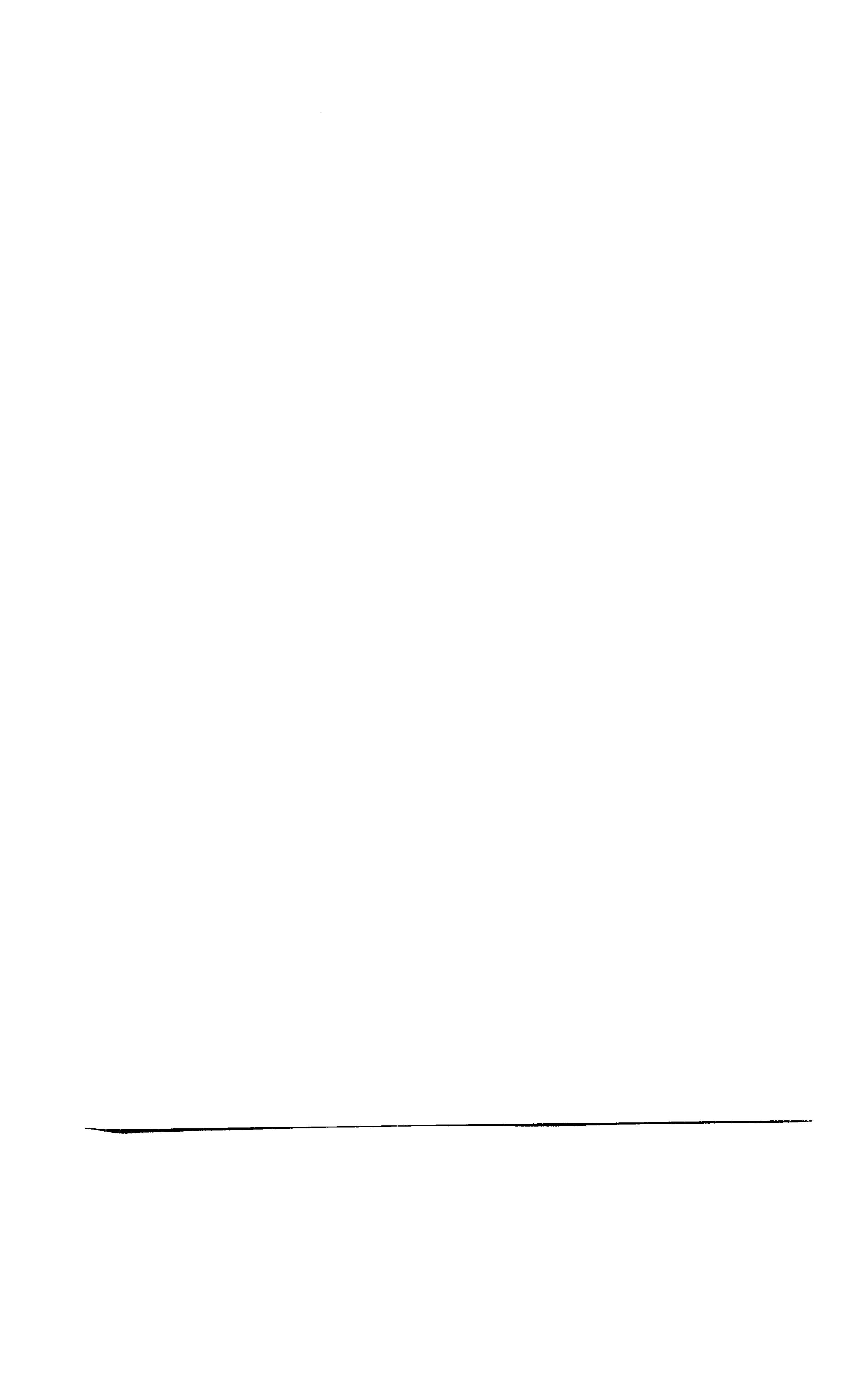
أما المسلمون فهم أمة التوحيد الكامل، ورأيهم في المسيح وأمه أعظم رأي، وللمسيح وأمه في دينهم مكانةٌ سامية، فهو من أولي العزم من الأنبياء، وأمُّه صديقةٌ شريفةٌ عظيمةٌ، لها سورة في القرآن باسمها وهي (سورة مريم) لمكانتها وشرفها.

ـ فما معنى مسالمة دعاة التنصير والكنيسة لكل الناس، وإعلانهم الحرب

على المسلمين وحدهم، إلا أن يكونوا قد خرجوا من دائرة الولاء للمسيح، إلى دائـرة أخرى. هي دائـرة الولاء لمخترع الدين الكنسـي الجديد (بولس) الذي تتعارَضُ تعاليمُـه تماماً مع تعاليم المسـيح... وأيضاً دائرة الولاء للمصالح المادية، والمنافع الدنيوية، حتى ولو أغضبت هذه المصالح ربَّ العالمين، وكانت حرباً على الأديان كلها، والقيم كلها، وموازين العدل كلِّها... وهذا في الحقيقة ما يفعلُه دعاةُ التنصير، وقادةُ الكنيسة...

وسلام عليك في الأنبياء والخالدين، أيها النبي المظلوم العظيم (المسيح ابن مريم) عليه السلام!!.

* * *



الشيخ الغزالي
ومنهج الحوار الموضوعي

عاش الشيخ الغزالي ينافِحُ عن الإسلام بقلمه ولسانه، وكان ممن امتلكوا زاداً ثقافياً رفيعاً شرقياً وغربياً، وكان موهوباً بيقين، عبقرياً حين يكتبُ أو يخطبُ، وقد تعرَّضَ لكلِّ التيارات التي اخترعها الفكر الصهيوني أو الفكر الصليبي، وجنّدَ لها بعضَ الذين يتكلّمون بألسنتنا؛ لكن قلوبُهم مع أعدائنا، إنهم ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢]، ومع ذلك كان الشيخُ يعامِلُهم بالحسنى، حتى يدخلَ إلى قلوبهم؛ إن كان هناك أملٌ في أن يتجهوا إلى الحق، وأن يقلِعوا من مواقع التبعية والخيانة الحضارية وإيثار المصلحة الدنيوية على مصلحة الدين والدنيا معاً... ومما كان يتميّزُ به الغزالي، أنه يعترِفُ بالحق الذي مع خصمه؛ بل ويثني على ما يردُ عند المستشرقين أو اليهود أو النصارى من حق في ثنايا كتاباتهم؛ بل إنه أثنى على بعض مواقف الشيوعيين عندما انسجمت مع الحق، مع علمه بأنَّ أكثر ما يردُ عندَ هؤلاء إنما يرِدُ سُلَّماً لنتائج لا علاقة لها بالحق ولا بالخير.

وقد كان دائماً يثني على كتاب السير توماس آرنولد (الدعوة إلى الإسلام)، ويأخذ على المسلمين أنهم لم يكتبوا في تاريخ الدعوة الإسلامية كما كتب المستشرق المذكور!!.

ـ هكذا كان شأن الغزالي مع الناس بصفة عامة... فماذا كان موقفه مع إخوانه المسلمين من سلفيين، وصوفيين وغيرهم؟.

إنّ الشيءَ الطبيعي أن يكونَ الإسلامُ رحماً بين أهله، وأن يكون المسلمون

رحماء بينهم، لكنَّ الغريبَ أنَّ بعضَ المسلمين لم يقدِّرْ تاريخَ الشيخ الغزالي، ولا جهاده، ولا مكانته، وسمحَ لنفسه أن يتجاوزَ أدب الحوار إلى درجة آذتْ مشاعرَ الشيخ الغزالي، فدفعته إلى شيء من الحدة في مواجهة شباب ورجال كانوا ـ لعقود كثيرة، يتباهون بالجلوس إليه، ويعترفون بعلمه، وقدرته، وجهاده، فيما يكتبون أو يتكلّمون، وربما مشوا مئات الأميال ليستمعوا إليه في محاضرة أو في خطبة، أو ليشتروا كتاباً من كتبه، وكلٌّ هذا من أجل بعض آراء مسبوقة عرضها الشيخ بطريقته الخاصة، وجمعها إلى بعضها، وهي فقه من الفقه، يقبل التخطئة والتصويب، والقبول والرد، وليس الشيخ الغزالي بدعاً في ذلك، وهو نفسه يعلن في كل المواقف إيمانه بضرورة الحوار الهادئ الموضوعي!!.

وأشهد أنني شخصياً رددتُ على بعض آرائه في التاريخ الإسلامي، وساعدني في ذلك الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، وكان ذلك في ملتقى من ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر، وابتسم الشيخ وقال: أشعر بأنكم تتآمرون عليّ، لكني أعرف نبل مقصدكما، ولم يردّ علينا، ذلك لأنني وأخي الكبير الشيخ يوسف القرضاوي لم ننزلق يوماً ـ لمجرد الخلاف في الرأي الفرعي ـ إلى المستوَى الذي لا يليق بشيخ في قامة الشيخ الغزالي ومكانته وتاريخه الشريف، بل كان حوارنا دائماً موضوعياً مهذباً يليق بالمناخ العلمي!!.

وفي كثير من المواقف أعلن الشيخ الغزالي استعداده لتغيير آرائه إذا أقنعه الآخرون بالأدب والحسنى، وأعترف بأنني شخصياً كنتُ وراء تغيير آراء الشيخ الغزالي في عدد من القضايا، بل سمح لي ـ جزاه الله خيراً ـ بإعمال قلمي ورأيي في بعض كتاباته، ثم عرضها عليه ـ على ما بيني وبينه من بون شاسع في العلم والفضل ـ لكنّ تواضع الشيخ الغزالي ومرونته آيتان من آيات الله فيه.

ـ لقد كان الغزالي يؤمن ـ بما أشار إليه الكاتب السعودي إبراهيم البليهي في جريدة (الرياض) السعودية عدد الجمعة ١٥ رجب ١٤١٣هـ، وهو يدافع عن الغزالي في وجه هذه الهجمة الشرسة... كان الغزالي يؤمن مع الكاتب

السعودي الغيور ـ بأنّ القدرةَ على التفاهم هي ذروة الإدراك العقلي، فالإنسان بعد امتلاك هذه القدرة يكون قد انداحت معرفته واتسع علمه، وتعمق فهمه . . . فصار يدرك حدود العلم البشري، ويعرف العوارض التي تعوق الفهم!! ولذلك فكلّما تألقَ عقل الإنسان، صار أكثر تواضعاً، وأقل ادعاءً، وأدري باحتمالات القصور والخطأ التي يتعرّض هو لها، كما يتعرض لها كل البشر .

وبسبب هذه الرحابة الإدراكية، وهذا العمق المعرفي يصير الإنسان أشدَ تسامحاً مع الآخرين، وأكثرَ تفهماً لوجهات النظر المتفاوتة؛ لأنه يعلم أن الاختلاف شيءٌ لا مفرّ منه، فهو ناشيءٌ عن النقص الملازم لكل البشر . . . كما أنه ينشأ عن اختلاف المؤثرات، فالمعرفة البشرية والفهم البشري كلاهما شيء نسبي .

كان الشيخ الغزالي يؤمنُ بهذا المنهج الذي أشار إليه إبراهيم البليهي في مجال رده ـ جزاه الله خيراً ـ على المهاجمين للشيخ الغزالي بعنف لا يليق، حتى وإن زعم بعضهم أنه (حوار هادئ)!! .

ـ وكان الغزالي يؤمن ـ إلى جانب ذلك ـ بضرورة تأصيل منهجية إسلامية للحوار، تعتمد منهجَ الأئمة الأعلام المجتهدين، الذين كانوا يتبادلون الحب والتقدير والثقة في الأئمة المخالفين لهم . . . إلى أن جاء عصرُنا الذي تصدَّر فيه بعض الجهلاء بمنهجية غير إسلامية، تقوم على التنابذ بين طلاب العلم، وشيوع الشك فيما بينهم . . . حتى أصبح من السهل أن يكون المسلمُ التقيُّ متهماً بعدم سلامة عقيدته إلى أن يثبت العكس، وهو لن يستطيعَ أن يثبتَ براءته . . . !! (كما يرى الأستاذ البليهي) .

* * *

هذا المنهج الفكري الأخلاقي في الحوار كان مدخلاً من مداخل شخصية الشيخ الغزالي، إذا أنت ابتعدت عن إثارته، والتطاول عليه، أو على حقائق الإسلام . . . أو على الحق الصراح .

وقد أوذي الشيخ الغزالي من كثيرين، لكنه صفح عنهم لأوهى الأسباب، كما أنه كان رجاعاً للحق، لا يعرف الشماتة في الناس. . . وكان ممن يحاسبون أنفسهم وينصفون الآخرين. . . وكان يبكي من خشية الله!!.

ومع هذه الخلال الكريمة، ومع أنه لم يزعم العصمة لنفسه، فهو مجتهد من المجتهدين يخطئ ـ وله أجر ـ ويصيب وله أجران. . . إلا أن هجوم بعض أدعياء السلفية عليه، كان من أسوأ ما عرفته الساحة الإسلامية من تجاوزات. . . ولهذا قدم الأستاذ البليهي ما تعرض له (شيخ الدعاة المفكر الكبير محمد الغزالي) ـ حسب تعبيره ـ نموذجاً في عجز بعض الناس عن الحوار ولجوئهم إلى التجريح والإسفاف.

لقد تعرّض ـ الغزالي ـ لحملة ظالمة شرسة، وصلَ بها الجورُ والتحاملُ إلى حد أنهم وضعوا اسمه بالخط العريض على غلاف أحد الكتب مع أتاتورك وأمثـاله من الذين عُرِفـوا بحربهم للإسـلام. . . الشيخ الغزالي. . . الذي جهر بالحق في سنوات كئيبة، حينما كان وحيداً في ذلك الجو المكفهر، الذي استشرى فيه المدّ الإلحادي؛ حيث كان الإلحاد مدعوماً من القيادات العسكرية التي نُكبت بها الأمة. . . فقد كانت تلك القيادات العسكرية تكتمُ أنفاسَ الحق، وتخنُقُ أفكارَ الأحرار. . . في ذلك الجو الذي كان مشحوناً بالرعب، كان الشيخ الغزالي يطلقُ قذائفَ الحق. . . ويوجِّهُ الاتهام إلى أولئك الذين كانوا يقودون تلك الهجمة الشرسة وهم في قمة جبروتهم. . . ثم يأتي الآن من يضعه بدون حياء ولا ضمير مع المعادين للإسـلام. . . ما أظلم الإنسـان. . .!! وما أفظع تزييف الواقع، وما أقسـى غمط الحق، وما أشـنع الاتهام حين يبلغ هذا الدرك من الدنـاءة والجور. . .!! (كما يقول الأستاذ البليهي).

ـ ومع كل هذا، فهؤلاء الشتامون المتطاولون، كان الشيخ كفيلاً بتعريتهم أمام الأمة، لكنه رفض أن ينزل إلى مستواهم، ورفض أن يشغل نفسه بكتاباتهم القليلة الخير، الكثير الشر. . . فالغاية النبيلة لا يتوصل إليها بالوسيلة الرديئة!!.

بل إنه ـ رحمه الله ـ كان يدعو الله أن يفرِّجَ كرب بعضهم، عندما اختلفوا مع حكوماتهم، متبعين الأسلوب نفسه الذي استعملوه مع الشيخ الغزالي. . . فكان أن أُودعوا السجونَ. . . وكان الشيخ حزيناً من أجلهم، لأنّهم ـ مهما كان الأمر ـ من الرصيدِ الإسلامي، وهم مخلصونَ ملتزمون، وإن كانوا قد أخطؤوا الطريق.

* * *



الشيخ الغزالي
وفقهه السياسي

كان الشيخ الغزالي، وهو يكتب ويخطب ويعلِّم، واعياً بالموقع الحضاري لأمته، وهو الموقع المتدنّي، الذي يفرض عليه أن يجاهد في الميدانين معاً:

ـ ميدان الحقوق التي لابدَّ أن تقابلها واجبات، بل التي لا بدّ أن تسبقها الواجبات، وإلا فلا حقوق... فلا وظيفة وعمل إلا بمؤهلات وعلم واجتهاد... ثم ميدان الحقوق الإنسانية العامة التي تكاد تفتقدها الأمة المسلمة بعامة، والتي هي حق طبيعي لها، بمجرد انتمائها للجنس الإنساني، ومع ذلك فقد عجزت عن الحصول عليها في العصر الحديث دون سائر الأمم، نتيجة (الاستبداد السياسي) و(الأوضاع الاقتصادية القاهرة) وسوء (الفهم للإسلام) الذي هو دينها وحضارتها في نسيج واحد!!.

وفي مواجهة هذا الخلل اتجهت كتابات الشيخ الغزالي منذ بدايتها للوقوف مع المستضعفين، الذين يستبدّ بهم الإقطاعيون والرجعيون الظالمون، ويقهرهم السياسيون المتجبِّرون، الذين لا يزالون ـ على الرغم من طبيعة العصر الحديث ـ يحتفظون في حكمهم، بكل خصائص الفرعونية والقبلية والجاهلية والطبقية.

وقد جاء أولُ كتابٍ ألّفه الشيخ الغزالي **(الإسلام والأوضاع الاقتصادية)** صرخةً مدويةً في وجهِ هؤلاء... تحاكمهم إلى عدل الإسلام الاجتماعي، وتنفي عن الإسلام الذي يزعمون أنهم يؤمنون به خُبثَ أعمالهم، وتبرز حقَّ الفقراء والمستضعفين في حياة كريمة، يتوافر لهم فيها حق الغذاء والدواء والسكن والتعليم والمعاملة اللائقة بإنسانية الإنسان.

ثم كان كتابه: **(الإسلام والاستبداد السياسي)** صرخةً أخرى في وجه

الجبابرة، الذين فرضوا أنفسهم على الأمة، وكبلوها لصالح أعدائها، ومنعوها من الإبـداع والانطلاق، وقهروها بشـرطتها وجيشـها، وفعلوا بها ما لم يفعله الاستعمار الإنكليزي والفرنسي والإيطالي، واستباحوا كل شيء فيها، وكأنّها ميـراثٌ لا إنسـاني انحدر إليهم ـ مِلكيـةً خاصةً ـ عن آبـائهم وأجدادهم، ولم يتورّعوا عن كلِّ صور الإذلال والقهر، غير آبهين بعلم العالم، ولا فقه الفقيه، ولا حقوقِ المواطنة، ولا إنسانية الإنسان.

وفي وجه هؤلاء الطغاة من زبانية الاستعمار العالمي مال الشـيخُ الغزالي ـ دائماً ـ إلى أنَّ (الشورى ملزِمةٌ)، بل رأى أن القول بأنها (مُعْلمة) يعطي سلاحاً للطغاة كي يتاجروا بالإنسان المسلم كما يشاؤون، ومال الشيخ بفكره السياسي إلى أنَّ الإسلامَ يلتقي في كثير من مبادئه مع الديمقراطية، مع علمه ـ بل تحذيره أيضاً ـ من نواحي الاختلاف الجوهرية بين الإسلام وبعض مفاهيم الديمقراطية، ولا سيما مصطلح (الحرية) ومصطلح (حقوق المرأة) الذي يعطيها حرية التصرف اللاأخلاقي في جسدها.

لكنه كان يرى أن التطبيقات السياسية الديمقراطية في المجتمعات الغربية، والتي تخلـو من تزويـر إرادة الشـعوب فيما عُـرِفَ في الشـرق بقانون (تزويـر الانتخابات)، وتخلو ـ أيضاً ـ من إطلاق يد الحاكم في بيع مستقبل الأمة وثوابتها كيف يشاء... هذه التطبيقات الديمقراطية السياسية يراها الشيخ الغزالي تلتقي مع الإسلام في حدود ما أحلّ الله وحرَّم الله، فليس لأصوات الناخبين تحويل المنكر إلى معروف، ولا إباحة الحرام ولا العكس!!.

وفي ضوء هذه الرؤية السياسـية الناضجة، التي تلتزم بتحقيق المصالـح العليا للأمة، انطلاقاً من أنَّ هذا هو أساس العقد بين الحاكم والمحكومين.

كان من حق الشيخ الغزالي، وهو رجل يمتلئ عقلاً وذكاءً وثقافةً، أن يُفضِّل على الرجال نساءً جُنَّ وحكمنَ بالديمقراطية، من أمثال رئيسة وزراء الهند (أنديرا غاندي) التي أذلت العسكري المسلم الدكتاتور الجنرال (يحيى خان)،

وشطرت بلده باكستان شطرين، وأسرت مئتي ألف جندي من جنوده.

ومن أمثال (جولدا مائير) التي لم تخطب كما خطب أشاوس العرب الثائرون، ولم ترفع شعارات مدوِّية مثلما رفع الهاتفون المؤمنون بالاشتراكية والشيوعية، والذين حكموا شعوبهم المسلمة بالقهر والذل، لكنها نجحت في أن تصنع من دويلة ناشئةٍ هي إسرائيل دولةً عظمى، لا يزيدُ عددها عن خمسة ملايين (مستورَد)، لكنّها قادرة ـ في ساعات ـ على هزيمة دول يُعدُّ سكانها بالملايين، لكنّهم حُكِموا بالقهر والإذلال والكذب والاستعباد، ولم يتورّع حكامهم عن استيراد أبشع وسائل التعذيب لأبناء وطنهم، الذين زعموا أنهم جاؤوا يحررونهم من الاستعمار الأجنبي، فكانوا أكثرَ وبالاً على الأمة من الاستعمار، وكانوا التمهيد الطبيعي لمزيدٍ من صور الهزيمة والاستسلام، وقد قدَّموا لإسرائيل الفرصة التاريخية المطلوبة، كي تنمو وتزدهر، وتصبح دولةً نوويةً وعلميةً واقتصاديةً ذات امتداد عالمي، بينما فشلوا هم في توفير الأمن والطعام وصناعة سيارات صغيرة لشعوبهم، فضلاً عن إقامة حكومة عادلة تصل إلى الحكم بإرادة شعبية صحيحة!!.

ومن أمثال مارجريت تاتشر (المرأة الحديدية) التي حركت جيشها في ساعات ليستولي على جزر (فوكلاند) محققةً نصراً استراتيجياً لبلدها، كما أنها ـ بذكاء شديد ـ تركت أمريكة تتورط في أشياء كثيرة، متنازِلةً لها عن كل ما فيه إنهاكٌ للطاقةِ، وتبديدٌ لها، منصرفة لرفع مستوى شعبها...!!

نساءٌ هناك، ولكنهنّ، كما قال الشاعر:

ولــو كــانَ النســاءُ كمــن عــرفنــا لفُضِّلَــتِ النِّســاءُ علــى الــرّجــالِ

ورجال عندنا أصحاب أصوات عالية، وشعارات تقدميَّة مستوردة كاذبة، أسودٌ على أوطانهم وإخوانهم، ونعاجٌ أمام أعدائهم، ينسحبون قبل المعارك، ويحولون ـ بالكذب ـ الهزائم والنكبات إلى أفراح وانتصارات، ما داموا هم

وأتباعهم باقين في سدّة الحكم.

وفي عهودهم عانت الأمة أسوأ صور القهر والخوف والظلم، حتى صح فيهم قول الشاعر:

وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أشدُّ غضاضةً على النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ

فكان أن نجحوا في فرض السلبية وكراهية الأوطان والأنانية، والخوف والجبن على شعوبهم، فدبَّتِ الفوضى في البلاد... وصدق قول الشاعر:

لا أذودُ الطيرَ عن شجرٍ قد بلوتُ المرَّ مِنْ ثَمَرِهْ

* * *

ولم يكن الشيخُ الغزالي معجباً بهؤلاء النسوة لأشخاصهن، فهنَّ جميعاً أعداء دينه وحضارته وأمته المسلمة... لكنّه أعجِبَ بهنَّ لأنه رجلٌ يحترِمُ إنسانية الإنسان، ويحترم العظمة الإنسانية، ويعترف بالحق حتى ولو كان مع أعدائه، ويتألّم لواقع أمته في ظل قادةٍ من المفروض أن يأخذوا بيدها لانتزاعِ حقوقها، وفرض مكانتها، لكنّهم انحازوا لأعدائها، وأضاعوا ثرواتها وحاضرها، وافتعلوا معارِكَ لا تنتهي مع شرائح من الوطن من أجلِ الحفاظِ على الفوضى والقمع والقهر، وكم ألْغَوا الشرائع والقوانين، وعقدوا محاكمَ عسكرية واستثنائية؛ لأنَّ بنود القوانين العادية المدنية لا تكفي لإرواء أحقادهم على بعض أبناءِ وطنهم.. والسؤال هنا: كيف ائتمنوا هذه القوانين ـ إذن ـ على حفظ مجتمعاتهم، وتحقيق الأمن والعدالة لشعوبهم؟.

فإنها إما أن تكون قوانين صالحة للجميع حكاماً ومحكومين، تكفل تحقيق أمن الدولة وأمن الشعب، وإما ألا تكون... وبالتالي فيجب أن تحكم الجميع، أو تذهب إلى الجحيم.

ـ وهذا ما حدث... فقد ضاعت هيبة القوانين... وانتشرت الجرائمُ

على أعلى المستويات - وظهرت صورٌ من الجرائم اللاأخلاقية لم تعرِفْها المجتمعاتُ الشرقيةُ والإسلامية، وأصبحت الحياة- في معظم المجتمعات العربية والإسلامية -بعيدةً عن الحدِّ الأدنى المطلوب للقيم الإسلامية أو الإنسانية!!.

* * *

وفي مواجهة هذه الفوضى الفكرية التي عمّت الأمة، وإنقاذاً لوعي الأمة، وتزويداً لها بأسلحة فكرية تنبع من دينها العظيم، الذي يرفُضُ كلَّ هذه الفوضى الاجتماعية والسياسية، كتب الشيخ الغزالي للأمة المسلمة في هذه الفترة الكلوح الكتب الآتية:

- كيف نفهم الإسلام.
- معركة المصحف في العالم الإسلامي.
- ليس من الإسلام.
- الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين.
- الإسلام والطاقات المعطلة.
- حصاد الغرور.
- الإسلام في وجه الزحف الأحمر.
- قذائف الحق.
- حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي.

إن هذه الكتب كانت كفاحاً ضِدّ موجات القهر والإلحاد والانحلال، التي زحفت على المسلمين في عصر الاستقلال الأعور، بقيادة أفراد محسوبين - قانونياً - على الأمة للأسف الشديد، حكموها في مرحلة ما بعد الاستعمار العسكري، لكنّهم نجحوا في أن يضيبوها بالشلل والتآكل الداخلي!!.

وهذه الكتب كانت تربيةً للأمة على أن تستعيد الثقة في دينها وتراثها

وذاتها، وأن تعرفَ حقها في الحياة الإنسانية الكريمة، وأن تعيَ أنها ليست أقل من (بني إسـرائيل) الذين يعيشـون ـ متبجحين ـ بدينهم، وأن قرآنها ليس أقل من التـوراة، بل إنه لا وجهَ للمقارنـة بين الكتابين، إلا كما يقارن ما أنزل الله، بما صنعه هوى الإنسان، وأنّ قدرتها على الانطلاق والبعث ـ بالإسلام ـ لا تقِلُّ عن قدرة اليهود أو الكوريين أو اليابانيين أو الأوروبيين لو لم يكبِّلها بعضُ سماسرةِ الاستعمار العالمي الذين يحكمونها بقوانين الغاب، ويقيمون وزاراتٍ ضعيفة (شـكلية) للبحث العلمي، ووزارات قويـة (حقيقية) للتَّعْذيب ورصد أنفـاس الناس. . . !!

وكانت هذه الكتب، رسـالةَ وعيٍ، وخطاباً إسـلامياً تنويرياً، (بـالمعنى الإيماني وليس الإلحادي المستورد للتنوير). وكانت زاداً له مذاقٌ خاص، تغذَّت عليه أجيال مسـلمة، افتقدت مثل مذاقـه فيما يوجد بين أيديها في الدراسـات الأزهرية والإسلامية التقليدية الجامدة الساكنة ـ من جانب. . . وافتقدت مثله ـ أيضاً ـ في كتابات أخرى على النقيض، راحت تدعو الأمة إلى الاستسلام الجماعي للمنظومة الحضارية الغربية، وتدعوها إلى التخلِّي عن دينها إذا شاءت أن تفوز بدنياها!! (وكأن دينها دون اليهودية والنصرانية والهندوسية والبوذية وهو الدين الوحيد المعارض للعلم والمدنية)!! مع أنه ـ وحدَه ـ هو الدين الذي يجلّ الإنسان والعلم والحضارة أعظم إجلال.

* * *

وغنيٌّ عن البيان أنَّ حديث الشيخ الغزالي في الفكر السياسي ـ حتى وهو يعالج قضايا سياسية ـ لم ينفصِلْ عن الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، فضلاً عن الجوانب الإيمانيـة الروحية والأخلاقيـة. . . وهذا المنهجُ شـيءٌ طبيعي، فالشيخُ الغزالي يتكلَّمُ عن نظامٍ سياسي موصول بدينٍ صادرٍ عن الوحي الكريم، وليسَ حديثُه مجرَّدَ حديث سياسي قائم بذاته، مستغنٍ عن مناخِه وأرضيتِه وقواعدِ انطلاقِه. . . وهذا المنهجُ ينسحبُ على شتى المعالجات التي تتصل بشـؤون

الدنيا، فهو خصيصةُ هذا الدين الذي يمزج الدنيا بالإيمان، ويجمع بين العقل والقلب والضمير في صعيد واحد.

ـ وفي ضوء هذا المنهج العام يتَّضِحُ لنا أن ما يقوله الدكتور (محمد وقيع الله)، وهو يتحدث حول (ملامح الفكر السياسي للشيخ الغزالي) يحتاج إلى تعليق.

يقول الدكتور وقيع الله:

«لقد كان الشيخ الغزالي يحاول دائماً رفعَ المعالجة السياسية إلى أفق الإضاءة الروحية. وهذا هو المنهج الأسدُّ، لأنّ النظام السياسي الإسلامي لا يؤتي ثمارَه ناضجةً إلا في المجتهدين في علم السياسة الإسلامي، وفي نهضته المرتجاة، فلا يحدون من مداه الرحب، ولا يجردونه من المضامين الروحية والأخلاقية. وقد ظهرت بالفعل إلى عالم الوجود كتب سياسية إسلامية اختار أصحابها ـ بتعمّد ـ أن يتخذوا منحًى دستورياً جافاً، مجرداً من روح الدين، وخالياً ولو من إشارات عابرة إلى جوانب الروح، وضمانات الإسلام الاجتماعية والتربوية الكثيرة، التي بدونها لا يمكن أن يستقيمَ نظامُ الحكم الإسلامي، وهي كتابات نرجو ألا تكون نموذجاً يحتذى في الجهاد السياسي الإسلامي المنشود، إذ إنها تجزِّئ الإسلامَ بالطريقة نفسِها التي جزأت بها العلوم السلوكية الحديثة مفهوم الإنسان، وعملت على معالجةِ مشكلاتهِ من منظورات جزئية، اقتصرت على دلالات علم واحد، كعلم الاقتصاد، أو علم النفس، أو الأنثروبولوجيا، أو الاجتماع... إلخ، غير واضعةٍ في الحسبان ضرورة النظر إلى الكينونة الإنسانية في أبعادها كافة»[1].

ونحن نقول:

إن الشيخ الغزالي كان ينطلق من المنهج الإسلامي الصحيح، وهو بالتالي

---

(١) محمد وقيع الله، ملامح الفكر السياسي للشيخ الغزالي، بحث بمجلة إسلامية المعرفة، السنة الثانية، العدد السابع، رمضان ١٤١٧هـ، ص١٠٨ ـ ١٠٩.

لم يرتفع بالمعالجة السياسية إلى أفق الوضاءة الروحية، فالمعالجة السياسية الإسلامية لا تتم إلا في مناخ هذه الوضاءة الروحية، وبالتشابك معها، والامتزاج بها، وفق نسيج إسلامي متوازن محكم، تعانق فيه الشريعة الروح والضمير!!.

أما المجتهدون في علم السياسة الإسلامي ممن أظهروا في عالم الفكر كتباً سياسية إسلامية ذات منحى دستوري جاف مجرّد من روح الدين، ومن ضمانات الإسلام الاجتماعية والتربوية... هؤلاء المجتهدون لا يمثلون ـ أصلاً ـ المنهج الإسلامي، وليسوا أكثر من أكاديميين محترفين قادرين على التجزئة والتفريع، لكنهم عاجزون عن تمثيل تكاملية المنهج، سواء في عالم الإسلام المحكم، أم في عالم الكينونة الإسلامية التي جاء الإسلام ليصبغها بصبغته، ويتفاعل معها تفاعل الروح والدم مع الجسد الإنساني، وليس الأمرُ مجرّدَ تجزئةٍ للإسلام، فربما كان ذلك مقبولاً في النطاق البحثي، لكن هؤلاء المجتهدين ليسوا من هذا الباب في شيء، فمعظمهم أقلُّ شأناً من أن يصلوا إلى هذا الأفق الواعي بفلسفة الإسلام وطبيعته العضوية المحكمة!!.

ـ وهذا الذي نقوله لعله يعالَجُ الأسلوب نفسه الذي استطرد إليه الباحث حين ذكر أن الشيخ الغزالي وهو يصوغ فكره السياسي، كان يعمل من ناحية أخرى في سبيل جذب السياسة نفسها إلى إطار الدين، فالحق أن كل ذلك مجذوب إلى بعضه أصلاً، وكلُّه مشدود إلى بعضه في مصنع النسيج الإلـٰهي بالصبغة الإلـٰهية التي تتقاطع فيها وتتشابك الخيوط كلها.

فما دامت السياسة (سياسة إسلامية) فلا بد أن تكون كذلك موصولة بكل جوانب الصياغة الإسلامية للحياة، وبطبيعة عمل هذا الدين فيها.

وفي رد الشيخ الغزالي على الأستاذ خالد محمد خالد في مرحلة انحرافه الفكري، قبل أن يتوب إلى الله ويثوب إلى رشده، وذلك عندما كتب كتابه: **(من هنا نبدأ)** يروِّج فيه لفكرة فصل الدين عن السياسة، فتصدى له الشيخ الغزالي بكتابه: **(من هنا نعلم)**.

- وفي ردِّه يقول له: «إنّ نظامَ الحكم الإسلامي ليس نظاماً من سائر الأنظمة المعروضة ليختار منها المسلم ما يشاء ويهمل ما يشاء، وإنما هو نظام منبثق رأساً عن عقيدة التوحيد، ومعبر عنها في واقع الحياة الاجتماعية».

- هذا الانبثاق يجعل النظام السياسي - بل وبقية النظم - ثمرة من ثمرات الجذر العقدي، وثمرة للسيقان التشريعية والأخلاقية، مرتبطة بالشجرة عضوياً، ومعبرة عنها، وحاملة لخصائصها، وليس من العلمية تقديمُ الثمرة على جذورها وسيقانها، أو الزعمُ بأنّ الثمرةَ كيانٌ مستقل ذو خصائص مستقلة، أو تضخيم الثمرة وتكثيفها، حتى تبدو وكأنها الأصل أو السبب، مع أنها الفرع والنتيجة!!.

كان الشيخ الغزالي واعياً - إذن - بطبيعة التصور الإسلامي، وكان منطلقاً منه في فقهه السياسي وهو الفقه الذي لا ينفصل عن فقه الإسلام... ذلك الدين الذي ضمَّنه الله من التعاليم ما يكفل للبشر حياة مستقرة، ويوضِّحُ الحقوقَ المقررة لكل إنسان، بل يفصِّلُ هذه الحقوق تفصيلاً يمنع الريبة والجدل... إن الإنسان - في ظل الإسلام - رفيع المكانة، وإن المكانة المنشودة له في الآخرة تجعله سيداً في الأرض والسماء.

ذلك أنه يحمل بين جنبيه نفخة من روح الله، وقبساً من نوره الأقدس.

وهذا النسب السماوي هو الذي رشحه ليكون خليفة في أرضه، وهو الذي جعل الملائكة - بل صنوف المخلوقات الأخرى تعنو له وتعترف بتفوقه[1].

لكنّ تاريخَ الإنسانية غير مشرِّف وهو مليء بصور الانحطاط التي تردَّى إليها الإنسانُ بعيداً عن الوحي، ولهذا تعهَّدَ الله البشريةَ برسله، كي يهدوها إلى الطريق اللائق بإنسانيتها... إلى أن جاء الإسلام بتعاليمه الخالدة من كتاب وسنة، فكان نفحةً ضخمةً من السماء لتوطيد مكانة الإنسان على الأرض. كان

---

(١) محمد الغزالي، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، ص١١، ط٣، مصر.

حمايةً له من الآفات التي تمسخُ وظيفتَه في الوجود، أو تحرمه الحقوقَ المقررةَ له منذ الأزل، ماديةً كانت هذه الحقوق أو أدبية[1].

كانت للشيخ الغزالي جهودٌ مشكورةٌ في مقاومةِ الجمودِ والتغريبِ معاً، لأن هذين الطرفين ـ معاً ـ ضاران بالحقائق الإسلامية!!.

وكان بفكره الثاقب، وعرضه العلمي، وعقله الواعي مقبولاً لدى هؤلاء وأولئك، محترماً حتى من الذين يختلفون معه، فإشعاعات الوحي الأعلى، ولمعات العقل الذكي، والثقافة الشمولية، كانت مبعث رضىً وتقدير من جميع من يتعاملون مع الشيخ الغزالي في فكره السياسي وغير السياسي.

وقد كان الشيخ واسع الصدر في البحث عن الحقيقة، وفي التعامل مع المفاهيم والآفاق الإنسانية الأخرى... لا يرفضُ فكراً ابتداءً، ولا يرفضُ الاقتباسَ والمقارنةَ والاعترافَ بالآخرين، والبحثَ عن جواهر الحكمة مهما كان مصدرها... وكان يرى أنّ هناك قواسمَ مشتركة بين الإسلام والفكر الإنساني العام على أساس تلاقي الوحي مع الفطرة السليمة، بل كان يؤمنُ بأن الفطرة الإنسانية البريئة من العلل والعُقد والخرافات والجهالات هي الإسلامُ نفسه، وهذا معنى أنّ الإسلامَ دينُ الفطرة.

وفي ميدان المقارنة بين حقوق الإنسان التي وصلت إليها الإنسانية عبْر المؤسسات والمنظمات الدولية، من خلال كفاحها المر لعدد من القرون، وبين هذه الحقوق في الإسلام... في ميدان هذه المقارنة، وبيان مواطن الاتفاق والاختلاف بينهما، يقول الشيخ الغزالي:

إنني أرى أن هناك تلاقٍ بين حقيقة الإسلام وبين المعنى الأصيل للإنسانية... وهذا التلاقي هو الذي جعلني أقول دائماً: «إن الإسلام عقل لا يعرف الخرافة، فعندما قرأت نشاط الإنسانية المجردة وهي تقرر الحقوق التي

---

(١) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وأعلان الأمم المتحدة، ص١٣.

تطلبها، أو الواجبات التي تفرضها، فإنني ـ في الحال ـ أقارن بين ما استطاعت البشرية أن تصل إليه، وبين ما تقرر لدينا نحن المسلمين في كتاب الله وسنّة الرسول ﷺ».

وحصيلة المقارنة ـ غالباً ـ تكونُ لمصلحة الإسلام، وما يكون في الحصيلة من شطط تجنح إليه الإنسانية عندما لا تستهدي بوحي الله ـ فإنه من الممكن فوراً أن أضربَ حوله نطاقاً، وأنْ أقرِّرَ الموقفَ الإسلامي الصحيح الذي حبانا الله تعالى به.

ويقول الشيخ الغزالي: عندما نظرتُ مثلاً إلى (المادة الأولى) في إعلان حقوق الإنسان، وهو أنَّ الناس يولدون أحراراً ـ فإنني لم أتكلف جهداً عندما قلت: إنّ الكلمة بنصِّها قد سيقت في حضارتنا الإسلامية على لسانِ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في قضية عابرة، تكلَّم فيها الفاروق عمر بن الخطاب بروح الإسلام الصافية دون تكلف.

وهذا الذي قدَّمتُه مجرد نموذج لعناصر الالتقاء بين ما تقرر في ديننا وبين ما وصلت إليه الجهود البشرية.

وفي المقابل فإنني قد أجد في (حقوق الإنسان) شيئاً من التفاوت بين ما قرره الوحي الإلهي، وبين ما وصلت إليه الإنسانية في مواثيقها، ومن أبرز صور هذا التفاوت (المساواة المطلقة) التي أقرَّتها هذه المواثيق بين الرجل والمرأة في كل شيء... فهي مساواة مجحفة للرجل (بأعباء وظيفته) وللأنثى (بطبيعة طاقاتها)، ومن صور التفاوت كذلك (والحديث لا زال للشيخ محمد الغزالي) قضية الارتدادِ عن الإسلام، فالارتدادُ عن الإسلام خيانةٌ، والعقوبةُ تقع فيه على عنصر العلانية، الذي يهزُّ النظام العام، وهو خروجٌ لا تقبله أي دولة، لكن بعض الأديان تقبل المجاهرة بخيانة الله وتقنين الإلحاد والانحلال، لأن دينهم لا يضعُ (الدولة) في حسابه، ويعطي ما لقيصر لقيصر.

وهنـا، وعندما أجدُ هذا التفاوت ـ فـإنني ـ أسـتطيع معرفـةَ من أين يبدأ النزاع، وكيف وقع اللبس؟.

فالذين يعطون المرأة حقاً كاملاً في مساواة الذكور، يضعون أمام أعينهم (المعاملة الرديئة) التي تقع في بعض المجتمعات الإسلامية بالنسبة للمرأة، وهي معاملة لا يمكن أن يكون الإسلام مسؤولاً عنها، وهي معاملة جعلت الرجلَ إذا زنى في بعض البلاد يُتغاضى عن (هفوته) على حين تقتل المرأة لأقلّ من الزنا، وكم ظُلِمَتْ أبكارٌ عندما تعرَّضْنَ لهذا الاتهام؟!!.

وأقول: عندما نشرح الموقف الإسلامي الصحيح، ونضع النقاط على الحروف في قضايا كثيرة اتُّهم فيها ديننا ـ وهو بريء ـ فإن الذين وضعوا مواثيق (حقـوق الإنسان) على ما هي عليه ـ سـيُقَدِّرون وجهة نظرنا، وسـيعودون إلى ما قرره الإسلام، ذلك لأنَّ الفارقَ بعيد بين حرية الرأي، وحرية نقض المجتمع من أساسه، وتسليمه لأعدائه... وهذا هو (الفيصل الجوهري) بين (حقوق الإنسان) في الإسلام، وحقوق الإنسان التي أقرتها المنظمات الدولية[1]!!.

إننا نحن المسلمين نؤمن بحقّ الإنسان في الحرِّية تماماً، مثلما يؤمن كل الناس العقلاء، لكنّنـا نؤمنُ ـ أيضاً ـ بضرورة الأخلاق للحياة الإنسـانية، وبأنَّ الحياة الإنسانية ستنهار عندما تنهار الأخلاق، وبالتالي فالحرية التي تقضي على الأخلاق والشرائع السماوية حريةٌ تقودُ إلى الهلاك والانتحار... وهذا هو الفرق الجوهري بين الحرية في الإسلام والحرية في الحضارة الغربية... تلك الحرية التي تحرسها الأمم المتحدة بمواثيقها والمؤتمرات الدولية المشبوهة التي تتحدّثُ عن المرأة وحقوقها... وسوف تنتهي البشرية يوم يتخلى المسلمون عن مقاومة هذه المفاهيم اللاإنسانية واللاأخلاقية للحرية. وحريتُنا الإسلامية مرتبطة ارتباطاً عُضويـاً بالعبودية لله وحده، لا شريك له، وبالدين الذي ينظِّم مجموعَ حريـات

(١) حقوق الإنسان في الإسلام د. عبد الحليم عويس، ص١٠ ـ ١٢، نشر الشركة السعودية للأبحاث والتسويق.

الناس، ويفصِّل بين الحدود المقررة لكل حرية. . . فللرجل حريته، وللمرأة حريتها، وللابن حريته، وللوالد حريته، وللدولة حدود من الحرية، لا يجوز أن تتجاوزها، وإلا انتهكت حرية الرعية.

كما أنّ الحرية في الإسلام مرتبطةٌ ارتباطاً عضوياً كذلك بالعدل والمساواة؛ فلا حرية بلا عدل يضع الحدود الضابطة لكل حرية، كما أنّ العدل هو أساس الحرية والمساواة معاً، بل هو الأرضية التي تقف عليها كل القيم الكريمة في هذه الدنيا، ويفقدُ العدلُ معناه إذا كان لقوم دون قوم، أو لأصحاب دينٍ دونَ دين، أو لطبقةٍ دونَ طبقة، وهذا يقتضي أن تكونَ المساواة كذلك من النواحي الإنسانية والقانونية مرتبطة بالعدل، ويكون التفاضُل قائماً على أساسِ العلم النافع، والعمل الصالح، ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، «وليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى».

* * *

إنَّ حضارتنا ـ في قواعدها التشريعية والتاريخية ـ هي حضارة الحرية. . . وحتى في ظلال القبيلة كان الإنسان (حراً) ولما انتقل إلى الدولة ـ في ظل الإسلام. كان المسلم يقول للخليفة على المنبر: «لا سمع ولا طاعة»، ولا يساق إلى أبشع وسائل التعذيب. . . وكانت المرأة تعترضُ على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويعترف عمر بخطئه ـ لكن مصطلح (الحرية) ـ قد غاب فترة من تاريخنا، ثم شوهته الحضارة الأوروبية بمفاهيمها، بحيثُ أصبحَ من المحتم عند تتبع مصطلح الحرية التعرف على الدلالات المختلفة التي استعمل فيها، وأدوار الاستعمال التاريخية التي مر بها.

ويرى البعض أن الحرية هي حرية المعارضة. . . حرية أن أرفض أو أقبل.

ويرى البعض أن الحرية هي (غياب المعارضة)، بالنسبة للشخص، أي أننا نشعر بحريتنا حين نحسُّ بأن أحداً لا يراقِبُ سلوكنا، ولا يحدُّ من قدراتنا التصرفية.

ومن هنا أطلقوا على النظم الإرهابية بأنها (النظم المطلقة). . . أي الحرة التصرف في الجماهير وفق هواها.

ولا تعارضَ بين الدلالتين. . . لأنّهما في الحقيقة يكمِّلُ بعضهما البعض.

فحرية هذا في أن يقول. . . هي نفسُها حرية ذاك في أن يعترِضَ. . . أي أن يقول رأياً آخر. . . المهم ألا يستعملَ أحدُهما وسائلَ خارجية بعيدةٍ عن القولِ، لكي يمنعَ الآخر من القول كما يشاء!!.

إن الحرية لا تعني (فقدان الضوابط) بل تعني انسجام الضوابط وتوازنها، بحيث لا تكونُ الضوابطُ ملزمة للمحكوم فقط، بل ملزمة للحاكم والمحكوم معاً!! والقيودُ التي تمنعُ الإنسان من الإساءة إلى نفسه أو غيره هي قيودٌ مرغوبٌ فيها عموماً، وقيودُ القانون العادل هي من هذا النوع، وحيثُ يسود (لا قانون) تسودُ بالتالي (لا حرية).

... وبالتأكيد تعتبر الحرية الاجتماعية المقننة، والحرية الاقتصادية المقننة، والحرية الفكرية المقننة. . . عوامل هامة لاستكمال الحرية السياسية، لأن الحرية السياسية لا تقوم في فراغ.

ويبقى بعد ذلك أن الحرية السياسية هي أن يتاح للمواطن الاشتراك في حكم نفسه، بقدر ما تسمحُ له مجموعةُ ظروفه في المجتمع، والدولة الحرة (سياسياً) هي التي تصبح دولة الشعب تحت مظلة الشريعة الإسلامية.

ومرةً أخرى، فإن (الحرية) أصلية في تصورنا الإسلامي وحضارتنا الإسلامية ليس بمعنى (تحرير الرقيق) ـ فقط ـ كما زعم بعض المغرضين ـ وإنما بالمعنى الإنساني العام، الذي ترجمه خيرَ ترجمةٍ الخليفةُ عمر بن الخطاب في عبارته الشهيرة: «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»[1].

* * *

---

(١) حقوق الإنسان في الإسلام، د. عبد الحليم عويس، ص١٣ ـ ١٥.

وفي كتابه المباشر حول (**حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة**) خص الشيخ الغزالي قضيتي المساواة العامة والحريات بمساحة كبيرة تزيد عن ثلث الكتاب، فعالج المساواة العامة في النواحي السياسية والمدنية وفنَّد مقولات التمييز بين الناس، وسماها فروقاً مفتعلة، ثم تحدث عن الحقوق القضائية، وهي التي تقضي بخضوع الحاكم والمحكومين جميعاً لقضاء واحد عادل، ثم تحدث في نحو (٦٠) صفحة عن الحريات من جوانبها المختلفة السياسية والفكرية والدينية والمدنية معاً وتأمين مسيرة الحضارة الإسلامية ومسيرة الحضارة الأوروبية.

وقد بين الشيخ حقيقة حكم الردة، وكيف أنه إذا كان ارتداداً إلى الماركسية أو إلى الوجودية أو إلى أي نحلة أخرى يعتبر تقويضاً لبناء المجتمع، وفلسفته الدنيوية، والأخروية. وبما أنَّ الارتداد قلَّما يكون أمراً قلبياً وحسب، وإلا لما أحسَّ به أحد، فهو في الأغلب الأعم ستار نفسي للتمرد على العبادات والشرائع والقوانين، بل على أساس بناء الدولة نفسها وموقفها من خصومها الخارجين، ولذلك كثيراً ما يرادِفُ الارتدادَ حرية الخيانة العظمى، وبالتالي تكون مقاومته واجباً مقدساً.

كما عالج الشيخ الغزالي قضية المرأة في نطاق حقوقها الاجتماعية في نطاق تكوين الأسرة، والدور المنوط بالمرأة فيها. وعالج قضية الهجرة، والحقوق الاقتصادية، والحقوق الثقافية والتعليمية، مقارناً بين الفكر العقلي البحت، وبين الوحي الديني. والأول يتمثَّلُ في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والثاني يتمثَّلُ في حقوق الإنسان في الإسلام.

وكان الشيخ في كل ذلك منطلقاً من فقهه الموسوعي ومن رؤيته الإسلامية الناضجة، لايكاد يخرج في مصادره عن كتاب الله وسنة رسوله وتجربة المسلمين، ومع ذلك فهو يقدّمُ فكراً يؤمن به أصحاب البصيرة، ولا يستطيعُ أن يرفضَه أصحابُ العقول، ولا يماري فيه إلا الجامد الجهول، أو الجاحدُ المدخول.

ويـدخلُ في نطاق معالم النظرية السياسـية للشيخ الغزالي حديثُـه الكثير المكرور عن العدل والشورى . . .

* * *

ـ ويؤمِنُ الشيخ الغزالي إيماناً جازماً لا تأويلَ فيه بجناحي النظام السياسي الإسلامي الأساسين وهما : العدل، والشورى .

ـ وهو يؤمن بأنّه إذا كان (العدل) واجباً، ولا يقبَلُ الجدال، ولا يماري فيه أحدٌ، فكذلـك يجب أن تكون (الشـورى) كذلك؛ فهي ضرورةٌ للأمة، ملزِمَةٌ للحكام ـ وبخاصة ـ في القضايا المصيرية . . . ومن الخيانة للإسلام التفريط في ثوابت الأمة عن طريق التحكم الفردي التسلُّطي الاستبدادي . . . والشورى هي الطريقُ لمقاومـة خيانة الحاكم للإسـلام، ولثوابـتِ الأمة، وأهدافِها القوميـة والإسلامية العليا . . . ! !

ويرى الشـيخ الغزالي أنّه إذا كان العقلُ يسـتوحي أحكامَه من بديهيـات الأشياء، التي أكدها التاريخ في مساره الطويل، فإننا نجد ـ من واقع التجارب ـ أنَّ الاستبداد سرطانٌ خطيرٌ تُبتلى به الأمم، وأنّ الشورى روحٌ كريمة تَسْعَدُ بها الأمم .

ومن خلال مسيرة العالم الإسلامي في القديم والحديث، نرى أنَّ التقدم الحق ارتبط بالشـورى، وأنَّ الهزيمـة النفسـية والفكريـة والعسـكرية ارتبطت بالاستبداد، وفيما أرى من تاريخ أمتنا أنَّ الشورى من ألزم الضرورات لها، فالعالم الإسلامي لا صلاح لحاله، ولا ضمانَ لكرامته، بل لا ضمانَ لوجودِه إلا بالشورى . . . (وهذا أمرٌ من بديهيات العقول) .

ـ وإنَّ مصابَ المسلمين من الاستبداد السياسيّ شديدٌ، والجراحاتِ التي تـركها في كيـانهم غائـرة، والهـوان المادي والأدبي الذي خلّفـه في النفـوس

والمجتمعات لا يمكن إنكاره (وهو من بديهيات العقول أيضاً) ومعروفٌ أنّ البلاد إذا اختلت أمورُها في الداخل، وانتظمها الاستبداد الداخلي، كان ذلك إيذاناً بانهيارها، واستسلامها للاستعمار الخارجي، وتدبّر قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٥]، فالقرآنُ رتّبَ أولي البأس الشديد على الفساد والاستعلاء، وشيوع العبودية.

ـ فلماذا لا تكون الشورى في الإسلام واجبةً وضرورةً دينيةً، وهي تقلّم أظافرَ المستبدّين، وتمنعُ طغيانَهم؟ . . . إنَّها ضرورة دينية ومدنية على السواء، والمماراةُ في وجوبها تجاهُلٌ لوقائعِ التاريخِ، ولأحكام الإسلام المرتبطة بالشورى.

إنّ هؤلاء الذين يتصوّرون أنّ قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، ضرب من الهزل، هم الذين يتصورون أنَّ أمرَ الله بالشورى يمكن أن يكونَ خطبةً حماسية، أو كلمةً وعظية عابرة، ثم يمضي كلُّ شيء في طريقه، كأن لم يقع أمرٌ ذي بال.

إن هذا فقه انهزامي لم يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى، وإنّ الوثائق الدينية والتاريخية ترفضه، وعلى أفضل الاحتمالات هو فقه استوحى آراءَه من بعض عهود الاستبداد في تاريخنا، وعلى جميع المجتهدين أن يعلموا أنّ العصر الوحيد الذي تؤخذ منه الأسوة والفتوى هو عصر الرسالة، ثم عصرُ الخلافة الراشدة. فإذا كان صاحبُ الرسالة يقول لزعيمي الأوس والخزرج: «إذا اتفقتما على شيء لا أخالفكما فيه» ويلغي معاهدة في ساعات العسرة في الخندق؛ لأنّه وجد اتجاه الأمة ضدها. فكيف يقال إنّ الشورى (نافلة)؟!!.

ـ إنَّ بعض الذين يتكلّمون في هذا الموضوع (كما يقول الشيخ الغزالي) يرتكبون خطأين:

الأول: الارتفاع بمستوى بعضِ الناس إلى مرتبةِ النبوّة.

وثانيهما: الزعم بأنّ النبوّة لم تلتزم بالشورى، وهذا كذب. فإنّ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ التزم بالشورى في غزوة (بدر) عندما حوَّل موقع الجيش إلى موقع آخر اقترحه أحدُ الصحابة، وكان الحق معه، ثم التزم الرسول بالشورى في (أحد) عندما ترك خطته كلها، وهي الدفاع عن المدينة من داخلها، ونزل على رأي الشباب، وهو له كاره، وخرج ليقاتل المشركين في العراء!!.

ـ وفي القرآن يَرِدُ وصفُ المؤمنين بالشورى في سورةٍ أطلق عليها اسم سورة (الشورى) لأهمية الشورى، وهي السورة رقم (٤٢) في المصحف الشريف.

ـ ففي هذه السورة (سورة الشورى) يردُ الوصف الإلـٰهي لجماعةِ المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾، ويشير المفسرون إلى أهمية ربط الشورى بالاستجابة لله، وبالصلاة، وبالزكاة... فهي وسط بين هذه الحلقات... وكل هذه الحلقات من أوجب الواجبات، وليست (نافلة) في الفقه الإسلامي.

ـ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾: «أي لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها.

ـ وإذا أردتَ أن تعلمَ لزوم الأمر هنا فاعلم أنّه جاءَ بالجملة الاسمية التي تفيدُ الاستقرار والثبوت، وأنَّه جاءَ بعد الاستجابة لأمر الله، وهي الإسلام، ثم الصلاة، وهي عماد الإسلام، وجاء خلفَ الشورى الزكاة، وإنفاق المال، فوضع الشورى بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أكبرِ الأدلةِ على لزومها».

ـ وفي الآية التالية من [سورة آل عمران: ١٥٩] يردُّ الأمرَ بالشورى بصيغة فعل الأمر، الذي لا صارفَ له عن الوجوب إلا بدليل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ وحيثُ لا دليلَ صادقاً، فإنَّ صرف الأمر على ظاهره إلى الوجوب هو العرف

المتفق عليه في الاصطلاح، كما أنّه الدلالة الظاهرة والصريحة للغة العربية.

- وعلى الرغم من رأي الشيخ الغزالي في أنّ الديمقراطية (ولا سيما البريطانية في رأيه) تلتقي مع الإسلام بدرجة كبيرة (مع الفروق التشريعية) إلا أننا نؤمن بأنَّ ثمة فروقاً جوهرية بين الشورى الإسلامية، والديمقراطية الأوروبية بعامة.

- وصحيحٌ أنّ عباس محمود العقاد رحمه الله، وغيره، استعملوا كلمة (الديمقراطية) بتجوّز - في إطار الفكر الإسلامي... بل جعلها الأستاذ العقاد عنواناً لكتابه (الديمقراطية في الإسلام)... لكن طبيعة البناءين الفكريين والحضاريين للنظامين الإسلامي والأوروبي - تجعلُ من الضروري التزام الدقة في إطلاق المصطلحات، بحيثُ لا تختلط المفاهيم.

- وهناك أسباب نفسية وفكرية جعلت الكثيرين ينبهرون (بالديمقراطية الأوروبية) إذا ما قارنوها بمرحلة (الاستبداد) ذلك السرطان الخبيث الذي أصبح لازمةَ من لوازم الشرق الإسلامي المنكوب!!.

- لكنّ هذه الديمقراطية الغَرْبية، وبخاصة بعد ظهور النظام الدولي الشمولي الاستبدادي الاستعماري المسمّى (العولمة) بدأت تفتضح، بعد أن أصبح أقطابها يُلْغون المنظمات الدولية، ويعبثون بقوانين حقوق الإنسان، ويكيلون بكيلين: كيل لليهود وإسرائيل وأوروبة... يعتمد المحاباة مهما كانت ظالمة... وكيل آخر للمسلمين يعتمد على الظلم الثابت... مهما كان الحقُّ واضحاً... وهم - أيضاً - يفرضون التدخل في شؤون الآخرين، تحت دعاوى مزيفة، ويفرضون الفقرَ على المستضعفين باتفاقية دولية (اتفاقية الغات) ويحرمون الشعوبَ من حق العلْم والمعرفة تحت دعوى (حقوق الملكية الفكرية الخاصة)!!.

لقد أوشكت كلُّ أوراقِ التوت التي كانت تسْترُ عورات الديمقراطية الاستعمارية أن تسقط... ولن يبقى في الساحة إلا (الشورى الإسلامية) والنظام

الإسلامي السياسي. . . والإسلام العقيدة، والشريعة، والحضارة الموجهة لكل الناس. . . لكل العالم. . .

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

* * *

المدرسة الفكرية
للشيخ محمد الغزالي

ـ للشيخ محمد الغزالي تلامذة يمثلون مدرسةً فكريةً تنتمي للصحوة الإسلامية... بيدَ أنها مدرسة مثقفة مفكرة واعية، معتدلة، تؤمن بالتعاون والعمل الحضاري والتغيير العاقل، وتركِّز على ضرورة الإصلاح الشامل عن طريق التقديم الطيب للفكر الإسلامي، وعن طريق السلوك الحميد، وعن طريق التعاون مع كلٍّ من يمكن التعاون معهم، دون عقد مسبقة، أو تشنجات حزبية.

ـ وقد تجاوز تلامذة الشيخ الغزالي كلَّ الحركات والتنظيمات، فأصبحوا قيادات ثقافية، ومنارات فكرية إسلامية، لمجموع الأمة، مع أنهم ـ وهذا ما علَّمهم الشيخ إياه ـ لا يسمحونَ لأنفسهم بالتعصب لحركة، ولا التشاحن مع حركة أخرى، تكونُ ذات منحًى عملي أو فكري يختلف في الفروع مع الآخرين، بل يرون أنَّ العاملين للإسلام، والمخلصين له، يلتقون على أصول واحدة، وأنهم مدارس مختلفة، لكنها متكاملة.

فإذا كان السلفيون يمثلون مدرسة العقيدة، فليس معنى ذلك أنّ أية حركة إسلامية حتى ولو كانت صوفية تملِكُ أن تتنكرَ للعقيدة، أو تنكر أنها أساس الإسلام، وبالتالي، فلا معنى لتحويل الاختلاف في الاهتمامات، وفي التركيزات إلى قضايا صراع بين المدارس الإسلامية، وكلُّ ما هنالك أن السلفيين ـ وهم محقون في ذلك ـ يرون أنَّ العقيدة يجب أن تأخذَ جُلَّ الاهتمام، وأن تكون مناط التركيز؛ بينما يرى غيرهم من المدارس ـ وهم محقون في ذلك ـ أنَّ أمر العقيدة لا خلافَ حوله، وأنه معلوم بالضرورة، وأنَّ الرسول ﷺ كان يعلِّم العقيدة في

وقت وجيزٍ دون تعقيد أو تركيب؛ بينما المهم هو تربيةُ الناس على تحويل هذه العقيدة إلى منهج حياة تتمثل في العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج، وهي الأركان الأولى الضرورية في هذا المنهج، وتتمثل في بقية شعب الإيمان، التي تزيد على السبعين، والتي يتفق عليها جمهور المسلمين وكلها تمثل الأركان المتكاملة الضرورية، فالربط بين العقيدة والعبادة الفردية والجماعية ضروري لتحقيق المنهج الإسلامي الصحيح.

ـ وهكذا نجد عند التحليل السليم أنّه يمكنُ التقاء كل المدارس الإسلامية حتى الصوفية الذين يلتزمون بالكتاب والسنَّة، يدخلون أيضاً في هذا التكامل، لأنّهم ـ كغيرهم من المسلمين ـ لا ينكرون إطلاقاً مكانة العقيدة والتوحيد الخالص؛ لكنّهم يرون أنّ الإسلام في حاجة إلى قلوب سليمة تستعلي على الدنيا، وتؤثِرُ الآخرة، وأنَّ منهجَ الذكر عن طريق الأوراد والأذكار المنتظمة الصحيحة شرعاً، يمكنُ أن يحقق للمسلم ما مدح الله به خليلَه إبراهيم عليه الصلاة والسلام عندما ختم حديثه عنه بقوله: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩]، فلم ينكرْ المتصوفون الملتزمون بالكتاب والسنَّة النبوية، البعيدون عن البدع والخرافات أهميةَ العقيدة، والتزامَهم بها، وأهميةَ العبادات والمعاملات، والتزامَهم بها، وإنّما ركزوا على تنقية القلوب من الأمراض الداخلية، كما ركز السلفيون على تنقية العقول والقلوب من الشرك الظاهر والخفي!!.

فالأهدافُ كلُّها واحدةٌ متكاملة، وإن اختلفت ألوان التركيز والتكثيف!!.

* * *

وهكذا تقف مدرسة الشيخ الغزالي وسطاً جامعاً بين كل التيارات الإسلامية، تلتزم بالكتابَ والسنَّة، ولا تساوِمُ عليهما، لكنّها ترفض التقوقع الحزبي والتنظيمي، وتدعو إلى التكامل والتنسيق بين كل العاملين للإسلام، وتضعُ الأخوةَ الإسلامية فوق الخلافات الفرعية، كما تضعُ الرؤية الحضارية

الشمولية فوق الرؤى الجزئية، وتدعو إلى سلمٍ عام، وكلمة سواء، بين الحكّام والمحكومين، وبين جماعة المثقفين الذين لم يخونوا أسس الإسلام، والذين يعلنون انتماءهم لثوابت الأمة والعقيدة. . . ولا يتبجحون بالشيوعية أو الاشتراكية العلمية، التي تنكِرُ وجودَ الله، أو دور الدين في الحياة، أو يتبجّحون بالعلمانية التي تقبل الإسلام (لاهوتاً) ديناً محصوراً في العبادات، وترفُضُ الإسلامَ نظامَ حياة له معالمه وقسماته وخصائصه في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية، أو بتعبير القرآن الكريم ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ﴾ [البقرة: ٨٥]، وهم يؤمنون بإسلام انتقائيٍّ، تقبل منه عقولهم ما تقبل، وترفض منه ما ترفض، فالإسلامُ ليسَ الحاكم عندهم، بل هو محكوم، وبالتالي فهو ليس دين الله، وإنما هو وجهةُ نظرٍ يُقْبَلُ بعضُها ويُرْفَضُ بعضها.

وتعدّ مدرسة الغزالي من أقوى المدارس في مواجهة هذا التمزيق والتشويه للإسلام، وإذا كانت مدارسُ الحركات الإسلامية تعتمدُ التربيةَ والعمل طريقاً لتقدم المسلمين ونشر الإسلام، فإنّ مدرسة الإمام الغزالي تعتمد الفكر والبيان، مع التربية والعمل ـ سبيلاً لتقديم المشروع الحضاري الإسلامي، وهي ترى في الداعية الشيخ محمد الغزالي النموذجَ الصالحَ في الاحتذاء والاقتداء، فهو ـ رحمه الله ـ أديبٌ كبيرٌ، ومؤرخ، ومفسر تاريخ، وكاتبٌ في الدراسات النفسية والاقتصادية والاجتماعية، وهو من أفضل من أسهموا في الدراسات الإسلامية قرآنيةً كانت أو نبويـةً، فقهيةً كانت أو أصوليـةً، جامعاً في دراسـاته كلها بين الفقـه الصحيح بالإسلام، والفقه الرشيد بأوضاع العصر الحديث وتحدياته.

ومع ذلك فمدرسة الشيخ الغزالي تعلمت منه الأثـرَ المنقول عن سـلفنا الصالح، والذي كان الشيخ رحمه الله يردده، وهو أنّ كل مجتهدٍ يؤخَذُ من كلامِه ويترَكُ، فلا عصمةَ لأحدٍ بعد محمد خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام، وللمجتهد المخطئ أجرٌ، وللمجتهدِ المصيبِ أجران، ولكلِّ امرئ ما نوى!!.

* * *

ويبقى أن نختم هذه الصفحات الوجيزة بذلك الدعاء الذي كان الشيخ الغزاليُّ يحبُّه ويكرِّرهُ ويعلِّمُه تلامذته:

«اللهم يا من خلقتَ من الترابِ والطينِ الزهورَ والرياحينَ: اجعلْ مِنّا ومِنْ جهادِنا شيئاً نافعاً للإسلام والمسلمين. . . اللهم آمين»!!.

وجزى الله الشيخَ الغزاليَّ عن الإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء، وغفر له زلاته، وعفا عنَّا وعنْه وعن جميع المسلمين.

* * *

الفهـــرس

* * *

صدر عن دار القلم بدمشق

للعلامة الداعية المفكر « محمد الغزالي » رحمه الله

١ - جدد حياتك .
٢ - خلق المسلم .
٣ - عقيدة المسلم .
٤ - مع الله (دراسات في الدعوة والدعاة) .
٥ - المحاور الخمسة للقرآن الكريم .
٦ - فقه السيرة (تجليد فني) .
٧ - علل وأدوية .
٨ - الطريق من هنا .
٩ - حصاد الغرور .
١٠ - ركائز الإيمان .
١١ - هموم داعية .
١٢ - دستور الوحدة الثقافية .
١٣ - قذائف الحق .
١٤ - فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء .
١٥ - جهاد الدعوة .
١٦ - هذا ديننا .
١٧ - ليس من الإسلام .
١٨ - الجانب العاطفي من الإسلام .
١٩ - ظلام من الغرب .
٢٠ - كيف نفهم الإسلام .
٢١ - الإسلام والأوضاع الاقتصادية .
٢٢ - صيحة تحذير من دعاة التنصير .
٢٣ - سر تأخر العرب والمسلمين .

بالإضافة إلى كتب أخرى للمؤلف الفاضل سنقوم بنشرها إن شاء الله تعالى